المبحث الرابع: ذكر محاسن التوحيد

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك والتنفير منه ترغيب الناس بتوحيد الله – تعالى –، وذلك بذكر محاسن التوحيد وفضائله، ومنافعه الكثيرة في الدنيا والآخرة ؛ فإن من عرف فضائل توحيد الله – تعالى – وأيقن بثمراته العاجلة والآجلة، فإنه لا شك سيسعى إلى تحقيقه في نفسه، ويبتعد عن كل ما يضاده وينافيه من الشرك والمعاصي.

ولقد سلك رُسُل الله – عليهم الصلاة والسلام – هذا الأسلوب في دعوة أقوامهم إلى التوحيد وتنفيرهم من الشرك، حيث ذكروا لهم فضائل التوحيد، وما يترتب على تحقيقه من الثمرات الكثيرة في الدنيا والآخرة.

فهذه نبي الله نوح – عليه السلام – يدعو قومه إلى توحيد الله –تعالى–، وينهاهم عن الشرك، ويذكر لهم في أثناء ذلك شيئاً من ثمرات التوحيد ومحاسنه؛ حيث يعدهم – إن هم استجابوا له – بمغفرة الله لذنوبهم، وتأخيره لآجالهم، وذلك بعدم معاجلتهم بالعقوبة التي قد تحل بهم إن هم بقوا على شركهم، كما قال – تعالى – حكاية عنه – عليه السلام –: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [نوح: ٢-٤] (١).

وفي آيات أخرى يحثهم – عليه السلام – على إفراد الله – تعالى–

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٤٦/١٢، وتفسير ابن كثير ٤٥٢/٤، وتفسير السعدي ٤٨٠/٧.

بالعبادة، والتوبة إليه من الشرك واستغفاره من جميع الذنوب، ويُطْمِعُهُم إن هم فعلوا ذلك"في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو – سبحانه – غفار الذنوب، ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠]، وأطمعهم أيضاً في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها، وهي المطر الغزير الذي تنبت به الزروع، وتسيل به الأنهار، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها – وهي البنين – والأموال التي يطلبونها ويعزونها: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾[1] [نوح: ١١-١٢].

وهذا نبي الله هود – عليه السلام – يدعو قومه إلى الإيمان بالله وحده والتوبة من الشرك وجميع الذنوب، ويبين لهم أن ذلك سبب لنزول الخيرات الكثيرة من السماء، كما يعدهم – إن هم آمنوا به – أن يزيدهم الله – تعالى – قوة إلى قوتهم، كما قال – تعالى – حكاية عنه – عليه السلام –: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

قال ابن جرير: "الاستغفار هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هوداً دعا قومه إلى توحيد الله لِيَغْفِرَ لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٣-٤] [2].

(١) في ظلال القرآن ٣٧١٣/٦، و انظر تفسير ابن جرير ٢٤٩/١٢، وتفسير السعدي ٤٨٢/٧.
(٢) تفسير ابن جرير ٥٧/٧، و انظر تفسير البغوي ٣٨٨/٢.

وقال ابن كثير: "ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه"(١).

وحينما دعا إبراهيم – عليه السلام – قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك والأصنام بين لهم أن عبادة الله وحده وتقواه سبب لحصول الخيرات، كما قال – تعالى –: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

قال ابن كثير عند هذه الآية: "وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة"(٢).

وقال السعدي: "وهذا من باب إطلاق"أفعل التفضيل"مما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك.

وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة فإنه من آثار عبادة الله وتقواه"(٣).

وقد أخبر الله – سبحانه وتعالى – أنه إنما أنزل كتابه الحكيم على رسوله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤١٨.

(٣) تفسير السعدي ٦/٧٤.

الكريم ﷺ لئلا يعبد إلا هو وحده ولا يُشرك به أحد من خلقه، ولذلك دعا رسول الله ﷺ قومه إلى عبادة الله وحده وبشر من استجاب له بالجنة، وأنذر من عصاه وكذب دعوته بالنار، وأمرهم بالاستغفار من ذنوبهم السابقة والتي من أعظمها عبادة الأوثان، وحثهم على التوبة إلى الله والرجوع إليه ولزوم طاعته وحده، ثم ذكر لهم ما يترتب على ذلك من الفضائل والمحاسن والتي منها سعة الرزق، ورغد العيش، والحياة الطيبة إلى أن يتوفاهم الله – تعالى – في الأجل الذي قدره لهم، كما وعد أهل الفضل والبر والإحسان بالجزاء الحسن والفضل العظيم من الله – تعالى – في الدنيا والآخرة [1]، كما قال – تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١-٣].

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦٢٠/٦، و تفسير ابن كثير ٤٥٠/٢، وتفسير السعدي ٤٠٠/٣، وأضواء البيان ٨/٣، والتفسير المنير ١٢/١٢.

المبحث الخامس: التذكير بالنعم

ومن أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك التذكير بنعم الله – تعالى –، فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها [١]، وتعظيمه، ومن تعظيم الله – تعالى – وكمال حبه، إفراده بالعبادة، وتتريهه عن الشرك، ولذلك سلك أنبياء الله – تعالى – هذا الأسلوب في دعوة أممهم إلى توحيد الله – تعالى – وترك عبادة الأوثان.

فهذا هود – عليه السلام – يقول لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ففي هذه الآية يذكِّر هود – عليه السلام – قومه بنعمة الله – تعالى – عليهم بأن جعلهم خلفاء لقوم نوح – عليه السلام – الذين أهلكهم الله بالغرق لما خالفوه وكذبوه، كما يذكرهم بنعمة أخرى منّ الله – تعالى – بها عليهم وخصهم بها، وهي طول الأجسام وقوتها [٢].

وهذا صالح – عليه السلام – يقول لقومه: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا

(١) انظر مجلة البيان، عدد ٦٨ ص(٣٧).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٣٤، وتفسير السعدي ٣/٤٩.

وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

فذكَّرهم – عليه السلام – بنعمتين من نعم الله – تعالى – عليهم؛ الأولى: استخلافهم بعد قوم هود الذين أهلكهم الله – تعالى – بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم لرسولهم، والثانية: التمكين لهم في الأرض يبنون من سهولها قصوراً وينحتون في جبالها بيوتاً [1]، وأراد بذلك أن يلفت أنظارهم إلى أنه ينبغي أن يشكروا الله – تعالى – على هذه النعم، وذلك بإفراده بالعبادة وحده دون من سواه.

وهذا إبراهيم – عليه السلام – يقول لقومه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

فذكّر – عليه السلام – جملة من نعم الله – تعالى – عليه وعلى غيره، والتي تستلزم إفراد الله – تعالى – بالعبادة وحده دون من سواه.

قال الرازي عند هذه الآيات: "واعلم أن إبراهيم – عليه السلام – جمع في هذه الألفاظ جميع نعم الله – تعالى – من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار

(١) انظر تفسير السعدي ٥٣/٣.

الآخرة"[١].

إن كل ما بالإنسان من نعمة فإنها من الله – تعالى – وحده ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣]، ونعم الله – سبحانه وتعالى – على عباده لا تعدُّ ولا تحصى، وهم وإن أدركوا شيئاً منها فإنه يخفى عليهم الكثير مما لم يشاهدوه بأبصارهم و لم يدركوه بعقولهم: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

ولقد ذكر الله – تعالى – في القرآن الكريم كثيراً من نعمه التي امتن بها على عباده، والمتأمل في الآيات التي تذكر فيها المنعم يجد أنها غالباً ما تختتم بالتنديد بالمشركين والإنكار عليهم والتعجب من حالهم حيث يتفضل الله – تعالى – عليهم بالنعم العظيمة ومع ذلك يدعون غيره ويتقربون إلى من سواه.

فمن الآيات التي يخبر الله – تعالى – فيها بنعمه العظيمة على خلقه، ويدعوهم إلى شكرها، وإسدائها إلى واهبها المتفضل بها، وذلك بإخلاص العبادة له وحده وترك جميع ما يعبده من دونه، قوله – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) تفسير الرازي ١٢٦/٢٤.

يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

ففي هاتين الآيتين ينبه الله – تعالى – عباده إلى ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة في الدنيا والآخرة حيث سخر لهم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلقه فيها من السحاب الذي يترل منه الأمطار فيسقي بها العباد ويحيى بها البلاد، كما سخر لهم ما في الأرض من الأشجار والدواب والأنهار والبحار وغير ذلك من المنافع، وعمهم بوافر نعمه الظاهرة والباطنة التي تخفى عليهم من نعم الدين والدنيا، ثم مع هذا كله يوجد من الناس من يكفر بهذه النعم ؛ حيث يجادل في توحيد الله – تعالى – وإرساله الرسل، بغير علم عنده، ولا هدى يبين به صحة ما يقول، ولا كتاب من الله نيِّر مبين للحق، وإنما حجتهم الوحيدة هي التقليد الأعمى لآبائهم الأقدمين الذين أضلهم الشيطان وزين لهم سوء أعمالهم فاتبعوه إلى جهنم وبئس المصير [(١)].

وقال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣].

يقول ابن كثير عند هذه الآية: "ينبه الله – تعالى – عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال – تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾، أي فكيف تؤفكون بعد

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٧/١٠، و تفسير ابن كثير ٤٥٩/٣، وتفسير السعدي ١٦٢/٦، وتفسير المراغي ٨٨/٧، والتفسير المنير ١٥٩/٢١.

هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان، والله أعلم"[١].

وفي سورة النحل والتي يسميها بعض المفسرين سورة النعم[٢] يذكر الله – تعالى – في مطلع السورة عدداً كثيراً من النعم التي امتنّ بها على عباده، ثم يستدل بها على وحدانيته، وينكر على المشركين الذين يعبدون الأوثان والأصنام وهو يتفضل عليهم بأنواع النعم، ويجري عليهم أصناف الأرزاق والمنن، حيث يخبر الله – تعالى – في هذه السورة أنه امتنّ على عباده بخلق السموات والأرض، كما خلقهم هم من نطفة ثم لم يزل ينقلهم من طَوْر إلى طَوْر يُربِّيْهِم بنعمه، ويؤتيهم من فضله حتى اكتملت أجسامهم ونضجت عقولهم وأفهامهم، كما امتنّ – سبحانه – على عباده بخلق الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، وجعل لهم فيها المنافع العظيمة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وألبانها، ولحومها، إلى جانب ما فيها من الجمال والزينة، ومع ذلك فهي تحملهم وتحمل أثقالهم إلى البلاد البعيدة، كما سخر لهم الخيل والبغال والحمير، وجعلها للركوب والزينة، كما امتن عليهم – سبحانه وتعالى – بإنزال المطر من السماء، وجعله عذباً يشربون منه هم ومواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة، وينبت به شجر ترعي فيه أنعامهم، كما سخر لهم الليل يسكنون فيه، والنهار ينتشرون فيه لتحصيل معايشهم، وجعلهما يتعاقبان، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم ليستضيئوا بها، ويهتدوا بها في الظلمات، إلى جانب ما فيها من

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٦٠١، و تفسير السعدي ٤/١٨٣.

المنافع العظيمة للأبدان والأشجار والثمار وغيرها، كما سخر لهم ما في الأرض من الحيوانات والنباتات والمعادن وغيرها مما يحتاجون إليه وتقوم عليه مصالحهم، كما سخر لهم البحر وهيأه لركوبهم، وجعل فيه الأسماك التي يتغذون بها، وأودع فيه الجواهر واللآلي التي يتحلون بها، كما أمتنّ عليهم بنصب الجبال في الأرض حتى لا تتحرك وتضطرب بهم، وأجرى فيها الأنهار التي يشربون منها ويسقون زروعهم ومواشيهم، وجعل فيها طرقاً يتوصلون بها إلى البلاد البعيدة، ثم لما ذكر - سبحانه وتعالى - ما امتنّ به على عباده من هذه النعم العظيمة قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٧-١٨] (١).

قال ابن جرير: "يقول - تعالى ذكره - لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة كمن لا يخلق شيئاً، ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة.

يقول: أتشركون هذا في عبادة هذا؟ يعرِّفهم بذلك عظم جهلهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، وقلة شكرهم لمن أنعم عليهم بالنعم التي عددها عليهم، التي لا يحصيها أحد غيره، قال لهم - جل ثناؤه - موبخاً: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أيها الناس؟ يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم، وعظيم سلطانه وقدرته على ما يشاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً، ولا

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٥٨٢-٥٨٦، و تفسير السعدي ٤/١٨٣-١٩١.

تدفع عنها ضراً، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهية.

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تطيقوا أداء شكرها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، يقول – جل ثناؤه – إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة إليه والتوبة"[1].

وقال – تعالى – في نفس السورة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٢-٧٤].

ففي هذه الآيات يذكر الله – تعالى – نعمته على عباده بأن جعل لهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تَقَرُّ بهم أعينهم، ويخدمونهم ويقضون حوائجهم، ورزقهم ما لذَّ وطاب من المآكل والمشارب، ثم ينكر – سبحانه – على المشركين الذين أعرضوا عن عبادته وحده واتخذوا له الأنداد والأصنام التي لا تملك لهم رزقاً من السموات والأرض، ولا تقدر على ذلك، فكيف يجعلونها أنداداً وأشباهاً لله – تعالى – في العبادة مع أن هذه

(١) تفسير ابن جرير ٥٧٣/٧.

حالها؟[١].

وقال - تعالى - في هذه السورة أيضاً: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٠-٨٣].

ففي هذه الآيات يذكر الله - تعالى - منته على عباده بأن جعل لهم البيوت التي تُكِنُّهُم من المطر والبرد، وتسترهم من الشمس، يأوون إليها هم وأولادهم ويحفظون بها أمتعتهم، وجعل لهم من جلود الأنعام البيوت الخفيفة التي ينتفعون بها حال سفرهم وحال إقامتهم، وجعل لهم من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ينتفعون به من الأوعية والآنية والفرش والألبسة وغيرها، وجعل لهم أيضاً من مخلوقاته ظلالاً يستظلون بها، كأظلة الأشجار والجبال وغيرها، وجعل لهم من الجبال كهوفاً ومغارات تكنهم من الحر والبرد والمطر وغير ذلك، وجعل لهم أيضاً ثياباً تقيهم الحر والبرد، ودروعاً تقيهم وقت الحروب، ثم يخبر

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٥٩٩، و تفسير السعدي ٤/٢٢٠.

- سبحانه - انه امتنّ بكل ذلك لكي يكون عوناً على طاعته، وإخلاص العبادة له وحده، فمن تولى وأعرض عن طاعة الله - تعالى - بعد هذا البيان والامتنان، فإنما على الرسول ﷺ البلاغ المبين، وقد أداه، وأما الهداية فهي بيد الله - تعالى -، وقد عرف هؤلاء المشركون أن الله - تعالى - هو المتفضل عليهم بهذه النعم، ومع ذلك كفروا به وأشركوا معه غيره، فسيرون جزاء الله لهم [١].

قال ابن كثير عند قوله - تعالى -: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ : "أي يعرفون أن الله - تعالى - هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع ذلك ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره"[٢].

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦٠١/٢، و تفسير السعدي ٢٢٥/٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٦٠٢/٢.

المبحث السادس: التنديد بآلهة المشركين وإظهار عجزها وحقارتها

إن العبادة بجميع أنواعها لا ينبغي أن تصرف إلا لمستحقها، وهو الله – تعالى–، فهو المتصف بالصفات الكاملة، وهو الذي له الخلق، وإليه الأمر، يعطي ويمنع، ويضر وينفع.

وأما ما يُعبد من دونه من آلهة فجميعها باطلة لأنها لا تملك الصفات التي تنبغي في المعبود ؛ فهي أوثان ناقصة عاجزة، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً، ولذلك ندّد بها القرآن الكريم، وأنكر عبادتها وبيّن ضعفها وعجزها وحقارتها، وسخر من عابديها، جاء ذلك في آيات كثيرة جداً وبأساليب متنوعة منها:

١) وصف آلهة المشركين بأنها مخلوقة ؛ والعبادة إنما تنبغي للخالق لا للمخلوق، كما قال – تعالى –: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقال – تعالى –: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠].

وقال – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأحقاف: ٤].

٢) وصف آلهة المشركين بأنها ميتة لا روح فيها، وما كان بهذه الصفة ماذا

يرجى من عبادته، وأنى يستجيب لداعيه !؟ قال - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

قال الزمخشري عند هذه الآية: "نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين، وأحياء لا يموتون، وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون، وأنهم أموات، وأنهم جاهلون بالغيب"(١).

"فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها ؛ حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها"(٢).

٣) وصف آلهة المشركين بأنها فاقدة للسمع والبصر والأيدي والأرجل، وما كان بهذه الصفة فإنه لن ينفع عابده ولن يجيب داعيه، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

---

(١) الكشاف ٢/٣٢٥.

(٢) تفسير السعدي ٤/١٩٢.

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول – تعالى ذكره – لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه، مُعَرِّفَهم جهل ما هم عليه مُقيْمُون: ألأصناكم هذه أيها القوم ﴿أَرَجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾فيسعون معكم ولكم في حوائجكم، ويتصرفون بها في منافعكم؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ فيدفعون عنكم، وينصرونكم بها عند قصد من قصدكم بشر ومكروه؟ ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ فيعرفونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه؟، ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيخبرونكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه؟ يقول – جل ثناؤه –: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتها، والمعظَّم من الأشياء إنما يعظَّم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟"[(١)].

وقال – تعالى – عن إبراهيم – عليه السلام – حينما دعا أباه إلى ترك الشرك: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم:٤٢].

وقال لقومه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢].

وقال – تعالى – منكراً على المشركين عبادتهم للأصنام: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾[فاطر: ١٤].

---

(١) تفسير ابن جرير ٦/١٥٠.

٤) الإخبار بأن هذه الآلهة التي تُعبد من دونه ليس لها أدنى ملك، لا على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، كما قال - تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

قال ابن القيم عند هذه الآية: "فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه ؛ فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ؛ فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ؛ فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى - سبحانه - المراتب الأربع نفياً مترتباً، منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى المِلْك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب منها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفي بهذه الآية نوراً، وبرهاناً، ونجاةً، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك، مَوَادِّه لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع، وفي قوم قد خلوا من قبل، و لم يُعَقِّبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن"(١).

وقال السعدي: "فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر، والشجر وغيرهم، قطعها الله وبيّن بطلانها تبييناً حاسماً لمواد

(١) مدارج السالكين ١/٣٧٢.

الشرك قاطعاً لأصوله.

لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله لما يرجو منه من النفع فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه غير الله لا مالكاً للنفع والضر، ولا شريكاً للمالك، ولا عوناً، ولا ظهيراً للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك كان هذا الدعاء، وهذه العبادة ضلالاً في العقل، باطلة في الشرع"[(١)].

وقال - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

والقطمير: هو القشرة التي تكون على النواة [(٢)].

"والمعنى: لا يملكون شيئاً ولو حقيراً، فكونهم لا يملكون أعظم من قطمير معلوم بفحوى الخطاب، وذلك حاصل بالمشاهدة، فإن أصنامهم حجارة جاثمة لا تملك شيئاً بتكسب ولا تحوزه بهبة، فإذا انتفى أنها تملك شيئاً انتفى عنها وصف الإلهية بطريق الأولى، فنفي ما كانوا يزعمون من أنها تشفع لهم"[(٣)].

٥) بيان أن هذه الآلهة التي تعبد من دونه لا تنطق ولا تتكلم، ولا شك أن هذه صفة نقص لا تليق بالمعبود، بل هي دالة على حقارته وبطلانه، قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ

(١) تفسير السعدي ٦/٢٧٥.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١٠/٤٠٣.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٢/٢٨٣.

﴿ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

قال الخازن[١]: "يعني أن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب، ولا يهدي إلى رشد، ولا يقدر على ذلك، ومن كان كذلك كان جماداً أو حيواناً ناقصاً عاجزاً، وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد"[٢].

وقال – تعالى – في شأن هذا العجل الذي عبده بنو إسرائيل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩].

أي: إن كلموه لم يرد عليهم جواباً.

قال ابن جرير: "أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم وإن كلموه لم يرد عليهم جواباً، ولا يقدر على ضر ولا نفع، فكيف يكون من كانت هذه صفته إلهاً؟"[٣].

ولقد احتج إبراهيم – عليه السلام – على بطلان آلهة قومه بكونها لا تنطق، فإنهم لما سألوه هل هو الذي كسَّر أصنامهم؟ أجابهم بقوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وأراد بذلك الأصنام المكسرة – اسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسَّر اسألوه

---

(١) هو علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشافعي، الشهير بالخازن، مفسر، محدث، من مصنفاته تفسيره لباب التأويل في معاني التنزيل، وشرح عمدة الأحكام في الفقه، توفي في حلب عام ٦٤١هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٤٢٢/١، والأعلام ٥/٥.

(٢) تفسير الخازن ٢٥٠/٢.

(٣) تفسير ابن جرير ٤٤٨/٨، و انظر تفسير ابن كثير ١٧١/٣.

لماذا كسرها؟ ومقصوده بهذا إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بالإقرار ببطلان عبادتها، ولذلك أقروا على أنفسهم بالظلم والشرك والضلال، ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، ولكنهم لم يثبتوا على هذه الحالة بل انتكست عقولهم، وضلت أفهامهم فقالوا لإبراهيم -عليه السلام-: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، أي كيف تستهزئ بنا حيث تأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟[١].

٦) بيان ضعف آلهة المشركين وعجزها الشديد حيث لا تجلب لعابديها نفعاً ولا تدفع عنهم ضراً، وإذا كانت بهذه الحالة فما الفائدة من عبادتها والتعلق بها، إنه الضلال البعيد والخسران المبين، قال - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾[الإسراء: ٥٦].

ففي هذه الآية يقول الله - تعالى - لنبيه محمد - عليه الصلاة والسلام -: قل للمشركين الذين يدعون غير الله من الأوثان ويلجأون إليها: ادعوا هذه الأوثان التي زعمتموها آلهة حينما يترل بكم الضر فإنهم لا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا تحويله إلى غيركم، لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله - تعالى - وحده لا شريك له، وهذا دليل على بطلان هذه الآلهة وحقارتها [٢].

وقال - تعالى -: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ

(١) انظر تفسير السعدي ٢٤٢/٥.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٩٤/٨، و تفسير ابن كثير ٥٠/٣، وفتح القدير ٣٣٥/٣.

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

بل بيّن الله - تعالى - أن هذه الآلهة التي تعبد من دونه لا تملك لأنفسها نفعاً ولا تستطيع أن تدفع عنها ضراً، فكيف تستطيع أن تنفع غيرها أو تنصره؟ قال - تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وقال - تعالى -: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

المبحث السابع: التشنيع بحال المشركين ورميهم بالسفه والضلال

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك والتنفير منه، الشنيع بحال المشركين وتسفيه عقولهم وتضليل آرائهم؛ فإن الشرك بالله – تعالى – من أقبح القبائح وأنكر والمنكرات وأعظم الضلالات، وأكبر السفاهات؛ حيث يرضى المشركُ لنفسه أن يتذلل ويخضع لمخلوق مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، إنه لا يقدم على ذلك إلا من غرق في الجهالة وتاه في الضلالة، وأمعن[١] في الإساءة، وانهمك[٢] في الغواية، وقد وردت آيات كثيرة يصف الله – تعالى – فيها المشركين بالجهل والضلال والسفه، فمن ذلك قوله – تعالى –: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

ففي هذه الآية يصف الله – تعالى – من أشرك به بأنه قد بلغ الغايـــة في الضلال والبعد عن الهدى.

"ومَنْ [هنا] استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجب، والمعنى: لا أحد أشد ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له دعاءه، فهـــو أقصى حد في الضلالة"[٣].

---

(١) أمعن: بالغ، المعجم الوسيط ٨٧٨/٢.

(٢) انهمك: جدَّ، مختار الصحاح ص(٢٩١).

(٣) تفسير التحرير والتنوير ١١/٢٦.

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾: "يقول – تعالى ذكره –: وآلهتهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل، وإنما عنى بوصفها بالغفلة تمثيلها بالإنسان الساهي عمّا يقال له، إذْ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئاً، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة مَن جميع ما بهم من نعمته، ومَن به استعانتهم عندما يترل بهم من الحوائج والمصائب"(١).

وقال – تعالى –: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١١٦].

وفي هذه الآية يحكم – سبحانه وتعالى – على من أشرك به بالضلال البعيد عن الحق، والزوال الشديد عن الهدى، والخسران المبين في الدنيا والآخرة (٢).

ومثل هذه الآية قوله – تعالى – في حق المشرك: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، وقوله – تعالى –: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[الرعد: ١٤].

وحينما دعا إبراهيم – عليه السلام – قومه إلى توحيد الله – تعالى – وترك الأوثان رفضوا دعوته، وأصروا على عبادة الأوثان، محتجين بما كان عليه آباؤهم، فرد عليهم – عليه السلام – مسفهاً لأحلامهم، مضللاً لآرائهم وآراء

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٧٣/١١.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١١٧/٤، و تفسير ابن كثير ٥٦٨/١.

آبائهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

ولما أفحمهم – عليه السلام – وأبطل دعواهم في إلهية أوثانهم وأقروا على أنفسهم بأنها لا تنطق ولا تضر ولا تنفع، قال لهم موبخاً لهم منكراً عليهم متهكماً بهم ساخراً من حالهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

"قبحاً لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قُبْحَ ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السموات والأرض، والذي بيده النفع والضر"(١).

ولما أخبر النبي ﷺ قومه بأنه منهي عن عبادة ما يدعونه من دون الله بيّن لهم أنه لو اتبع أهواءهم ووافقهم في ذلك صار ضالاً مثلهم، وهذا على سبيل الفرض، فإنه ﷺ معصوم من ذلك (٢)، قال – تعالى –: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

"وجملة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ جواب لشرط مقدر، أي إن اتبعت أهواءكم إذن قد ضللت.

---

(١) تفسير ابن جرير ٩/٤٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥/٢٠٨، و تفسير السعدي ٢/٤٠٧.

وتقديم جواب"إذن"على"إذن"في هذه الآية للاهتمام بالجواب، ولذلك الاهتمام أكد بـ"قد"مع كونه مفروضاً، وليس بواقع للإشارة إلى أن وقوعه محقق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه"إذن".

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عطف على ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ عطف عليه للدلالة على أنه جزاء آخر للشرط المقدر، فيدل على أنه إن فعل ذلك يخرج عن حاله التي هو عليها الآن من كونه في عداد المهتدين إلى الكون في حالة الضلال، وأفاد مع ذلك تأكيد مضمون جملة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ لأنه نفى عن نفسه ضد الضلال، فتقررت حقيقة الضلال على الفرض والتقدير"[(١)].

وقد شبه الله – تعالى – المشركين فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل بالبهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفهم معناه، ووصفهم – سبحانه – بأنهم صم عن سماع الحق، بكم لا ينطقون به، عمي عن رؤية طريقه، لا ينظرون نظر تفكر واعتبار [(٢)]فقال – سبحانه –: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

"فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذِيْدَ [(٣)] عن الفساد، ونهى عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصحَ،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٦٢/٧ باختصار.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢١٠/١، و تفسير السعدي ٢٠٣/١، وفي ظلال القرآن ١٤٩/١.

(٣) ذيد: طرد، مختار الصحاح ص(٩٤).

وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبذ الحق أن هـذا ليس له مُسْكَة[١] من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء فإنه من أسفه السفهاء"[٢].

(١) مُسْكَة: بقية، مختار الصحاح ص(٢٦١).

(٢) تفسير السعدي ١/٢٠٣.

المبحث الثامن: التذكير بعقوبة الله للمشركين السابقين

لقد حث القرآن الكريم على النظر في أحوال الأمم الغابرة [١]، وكيف كان مصيرهم حينما كذبوا رسلهم وأشركوا بالله ما لم يترل به سلطاناً، فإن سنة الله – تعالى – لا تتبدل ولا تتغير، ولا تحابي أحداً أو تجامله، كما قال – تعالى –: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال – تعالى –: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]، ولذلك كان أنبياء الله – عليهم الصلاة والسلام – يُذَكِّرون أقوامهم بعاقبة من سبقهم من الأمم، وينذروهم أن يصيبهم ما أصاب من كذب وأشرك منهم لعلهم يعتبرون بذلك ويتعظون.

فهذا نبي الله هود – عليه السلام – يُذَكِّر قومه بما حل بقوم نوح – عليه السلام – حينما كذبوه وردوا دعوته وبقوا على شركهم، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حلّ بقوم نوح من العذاب إذْ عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا الله أن يحل

(١) الغابرة: الماضية، انظر المصباح المنير ص(٢٢٩).

بكم نظير ما حلّ بهم من العقوبة، فيهلككم ويبدل منكم غيركم، سُنَّتَه في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به"[(١)].

وهذا نبي الله صالح – عليه السلام – يذكِّر قومه بما حلّ بقوم هود – عليه السلام –، وينذرهم أن يصيبهم ما أصابهم إن هم ردوا دعوته وأصروا على الشرك وعبادة الأوثان، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهذا نبي الله إبراهيم – عليه السلام – يذكِّر قومه بما حلّ بالأمم المكذبة للرسل قبلهم، ويحذرهم أن يصيبهم ما أصابهم إن هم كذبوه وخالفوا أمره، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

أي كذب أمم قبلكم أنبياءهم فأهلكهم الله – تعالى – وعاجلهم بالعذاب، فلم يضروا رسلهم، وإنما ضروا أنفسهم بشركهم وتكذيبهم [(٢)].

وفي آيات كثيرة يأمر الله – تعالى – رسوله محمداً ﷺ أن يحث قومه على النظر في أحوال من سبقهم من الأمم، والتأمل في ديارهم، والاعتبار بما حلّ بالمشركين منهم كما قال – تعالى –: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ

---

(١) تفسير ابن جرير ٥/٥٢٣.

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/٤٦٣، و تفسير القرطبي ١٣/٢٢٢، وتفسير الخازن ٣/٣٧٨، وتفسير البضاوي ٢/٢٠٦، ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية خطاب لمشركي قريش، انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٢٩، و تفسير ابن كثير ٣/٤١٩.

﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠-١١].

ففي هاتين الآيتين يسلّي - سبحانه وتعالى - رسوله ﷺ في تكذيب قومه له، ويتوعد من كذبه من المشركين بالهلاك العاجل الذي حلّ بمن قبلهم من الأمم المكذبة، ثم يأمر رسوله ﷺ أن يحث قومه المشركين بالله - تعالى - المكذبين لرسوله أن يسيروا في الأرض ويتجولوا في ديار من سبقهم من الأمم الشركية المكذبة، وينظروا كيف كان عاقبة شركهم وتكذيبهم، وما حلّ بهم من النكال والعذاب مع ما ادّخر الله لهم من العذاب الأليم في الآخرة، إن من ينظر إلى تلك الديار بعين البصيرة فإنه لا شك سيزجر عن مشابهتهم، ويبتعد عن مثل أفعالهم [(١)].

وقال - تعالى -: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢].

قال ابن جرير: "يقول - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سيروا في البلاد فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذبوا رسوله، كيف كان آخر أمرهم، وعاقبة تكذيبهم رسل الله، وكفرهم، ألم نهلكهم بعذاب منا، ونجعلهم عبرة لمن بعدهم ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾ يقول فعلنا ذلك بهم لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم"[(٢)].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٥٤/٥، وتفسير ابن كثير ١٢٩/٢، و تفسير السعدي ١٢٩/٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١٩٢/١٠.

قال القرطبي: "وهذا السفر مندوب إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار مَنْ خَلاَ من الأمم وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر"[١].

وقال النووي: "باب البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين ومصارعهم، وإظهار الافتقار إلى الله - تعالى -، والتحذير من الغفلة عن ذلك[٢]، وذكر حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه لما وصلوا الحِجْر[٣]: ((لا تدخلوا على هؤلاء إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم[٤] مثل ما أصابهم)) [٥]، وفي رواية لمسلم: ((لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم زجر[٦] فأسرع حتى خَلَّفَها)) [٧].

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين في هذا الزمان يذهبون إلى تلك الديار للسياحة والنزهة، وربما فعلوا عندها بعض المنكرات.

والآيات التي تدعوا إلى النظر والاعتبار في أحوال الأمم السابقة كثيرة، فمنها قوله - تعالى -: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(١) تفسير القرطبي ٦/٢٥٤.

(٢) رياض الصالحين ص(٣٥٠)، و انظر زاد المعاد ٣/٥٣١.

(٣) الحِجْر: ديار ثمود ؛ قبيلة نبي الله صالح، وهي شمال المدينة بينها وبين الشام، وتعرف اليوم بمدائن صالح، انظر معجم البلدان ٢/٢٠٢.

(٤) أي خشية أن يصيبكم.

(٥)أخرجه البخاري ٨/٣٨١ ح(٤٧٠٢)، وصحيح مسلم ٤/٢٢٨٥ ح(٢٩٨٠).

(٦) أي زجر ناقته.

(٧) صحيح مسلم ٤/٢٢٨٦ ح(٢٩٨٠).

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل: ٦٩].

وقوله – تعالى –: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[يوسف: ١٠٩].

وقوله – تعالى –: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

وقوله – تعالى –: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠].

هذا ولا شك أن أعظم ذنب عوقبت عليه تلك الأمم هو الشرك بـــالله، كمـــا قـــال – تعـــالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣].

ففي هذه الآية يخبر الله – تعالى – أنه قد أهلك الأمم الماضـــية بســـبب شركهم بالله – تعالى – ومخالفتهم أمره بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج الواضحات، على صدق ما جاؤا به، فلم يؤمنوا بهم، ويجيبوهم إلى ما دعـــوهم إليه من توحيد الله – تعالى – وإخلاص العبادة له، وترك عبادة الأوثان، ثم يبين – سبحانه – أنه كما أهلك تلك القرون الماضية كذلك يهلك من شابههم وفعل مثل فعلهم من هذه الأمة، وفي هذه الآية تخويف لكفار قريش الـــذين كـــذبوا

رسول الله ﷺ، واستمروا على شركهم، وهذه سنة الله – تعالى – في جميع الأمم [١].

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: "يقول – تعالى ذكره –: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم أيها المشركون بظلمهم أنفسهم، وتكذيبهم رسلهم، وردهم نصيحتهم ؛ كذلك أفعل بكم، فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمداً ﷺ، وظلمكم أنفسكم بشرككم بربكم إن أنتم لم تنيبوا وتتوبوا إلى الله من شرككم، فإن ثواب الكافر بي على كفره عندي أن أهلكه بسخطي في الدنيا، وأورده النار في الآخرة"[٢].

(١) انظر تفسير البغوي ٣٤٦/٢، وتفسير الخازن ٤٣١/٢، و تفسير السعدي ٣٣٣/٣.

(٢) تفسير ابن جرير ٥٣٨/٦، و انظر نفس المرجع ١١٠/٧.

المبحث التاسع: بيان ما يحصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك تصوير ما يحصل يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة، وتنصل[1] المعبودين من جناية هؤلاء العابدين، وإنكارهم أن يكون لهم يد في إضلالهم وشركهم [2]، وكفر العابدين بالمعبودين، وجحد عبادتهم.

إن من عرف مصير تلك الآلهة المدَّعاة، وموقفها من عابديها في يوم أحوج ما يكون فيه الإنسان إلى الشافع والنصير، فإنه لن يجترئ أن يتأله لمخلوق كائناً من كان.

ولقد صور القرآن الكريم ذلك الموقف، وتلك المجادلة تصويراً بليغاً، وعرض تلك المخاصمة عرضاً بديعاً، وذلك في آيات كثيرة، منها قوله -تعالى-:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم

(١) انظر دعوة التوحيد، لهراس ص(٣٨).

(٢) التنصُّل: التبرؤ، انظر مختار الصحاح ص(٢٧٦).

﴿ بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

ففي هذه الآيات يذكر الله – تعالى – حال المشركين الذين جعلوا له الأمثال والنظراء يعبدونهم من دونه، ويحبونهم كحبه، يذكر الله – تعالى – حالهم حينما يعاينون العذاب الشديد يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يوقنون فيه بأن القوة كلها لله – سبحانه –، وأن الأمر كله بيده، وأن جميع المخلوقات تحت قهره وسلطانه، وأن أندادهم التي يتعلقون بها عاجزة حقيرة لا تستطيع نصر أنفسها فضلاً عن غيرها، حينئذٍ يخيب ظنهم، ويبطل سعيهم، ويشتد كربهم، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ويكفر التابعون بالمتبوعين، وتنقطع بينهم العلائق والأواصر والصلات، ويتمنى التابعون أن يُردّوا إلى الدنيا لكي يتبرؤوا من متبوعيهم، ويخلصوا العبادة لله وحده، وأنّى لهم ذلك، فإن الوقت ليس وقت إمهال، وهم مع ذلك كاذبون لأنهم لو ردوا لعادوا لما نهو عنه كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]، فهم كاذبون في دعواهم هذه [(١)].

"إنه مشهد مؤثر: مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، بين المحبين والمحبوبين، وهنا يجئ التعقيب المُمِضُّ[(٢)] المؤلم:

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢/٧١، و تفسير ابن كثير ١/٢٠٨، وتفسير السعدي ١/١٩٧.

(٢) المُمِضُّ: الموجع، انظر مختار الصحاح ص(٢٦١).

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

إن المودة والولاء والحب الذي يكون بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا ينقلب إلى بغض وعداوة وتبرؤ وتلاعن في الآخرة، كما قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال - تعالى -: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقال - تعالى - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وفي سورة الأعراف يذكر الله - تعالى - مشهدين من مشاهد الحسرة والخذلان، والخزي والخسران للمشركين الذين افتروا عليه الكذب، فنسبوا له النظراء والأنداد، وكذبوا بآياته الموصلة إلى الهدى والرشاد.

---

(١) في ظلال القرآن ١/٥٤.

أما المشهد الأول فهو مشهدهم حينما تتخلى عنهم آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله، وتغيب عنهم في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى المعزّ والنصير، ذلك أن تلك الآلهة شغلت بأنفسها، وحينئذٍ يشهدون على أنفسهم بالكفر، واستحقاق العذاب.

وأما المشهد الثاني فهو مشهدهم حينما يحكم الله - تعالى - عليهم بدخول النار لينضموا إلى أمثالهم من الأمم السابقة من الجن والإنس ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ حتى إذا اجتمعوا فيها وتلاحقوا قال متأخروهم من الأتباع لأوائلهم من الرؤساء المتبوعين: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾، وذلك لأنهم السبب في إضلالهم، فيدعون الله - تعالى - أن يضاعف عليهم العقوبة[1]، فيجيبهم الله - تعالى - بأن لكل منهم عذاباً مضاعفاً [2]، فيرد المتبوعون - المدعو عليهم - على الأتباع الداعين بأنه ليس لكم فضل علينا، فقد اشتركنا في الشرك والضلال، قال الله - تعالى - لهم

---

(١) كما قال - تعالى - عنهم في آية أخرى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨].

(٢) ولا شك أن عذاب المتبوعين والأئمة المضلين أعظم من عذاب الأتباع، كما قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال - تعالى -: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النحل: ٢٥].

جميعاً: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[1].

يقول الله – تعالى – مصوراً ذينك المشهدين: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٧-٣٩].

وقال – تعالى – عنهم في حال محشرهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٧٨/٥، و تفسير ابن كثير ٢٢١/٢، و تفسير السعدي ٢٤/٣، وفي ظلال القرآن ١٢٨٩/٣، والتفسير المنير ١٩٩/٨.

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧-٣٣].

وهناك آيات أخرى يخبر الله - تعالى - فيها أن المعبودين من دونه من الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين وغيرهم يعلنون براءتهم من عبادة عابديهم وعدم رضاهم بها وغفلتهم عنها، ويشهدون الله على ذلك، كما قال - تعالى-: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

نعم، في ذلك الموقف العصيب الذي يحشر فيه الناس جميعاً، يأمر الله - تعالى - المشركين وشركاءهم أن يلزموا مكانهم، ثم يفرق الله - تعالى - بينهم وبين شركائهم، تفريقاً حسياً بالأبدان، ومعنوياً بقطع العلائق والصلات، وحينئذٍ يتبرأ المعبودون من عُبّادِهم، وتحصل بينهم العداوة الشديدة بعد أن بذلوا

لهم في الدنيا خالص الحب، وصفو الوداد،"وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، و لم يأمرهم بذلك، ولا رضي به، ولا أراده، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه"(١).

في ذلك اليوم تَخْتَبِرُ كلُ نفس ما قدمت، وتتفقد ما عملت من خير أو شر، حيث تجازى بحسبه ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾(٢).

وقد أخبر الله – تعالى – أن عيسى – عليه السلام – يتبرأ ممن عبده، وينكر ما نسب إليه من ادعاء الألوهية، كما قال – تعالى –: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٦-١١٧].

كما أخبر – سبحانه – أن الملائكة يتبرؤون من عابديهم، كما قال

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣١/٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥٥٥/٦، و تفسير ابن كثير ٤٣١/٢، و تفسير السعدي ٣٤٨/٣، والتفسير المنير ١٥٩/١١.

- تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

بل إن الشيطان الذي لم يُعبد معبود من دون الله إلا بأمره وإغوائه وتزيينه يتبرأ من معبوديه يوم القيامة، ويكفر بشركهم، كما قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وحينما يشتد الكرب ويعظم الخطب يوم القيامة يُسأل المشركون ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وعند ذلك يحارون ويضطربون في الإجابة، فتارة ينكرون إشراكهم [(١)]، ويقولون: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وتارة يقولون: ﴿ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾ [غافر: ٧٤]، وتارة يعترفون

(١) وذلك حينما يرون أن الله - تعالى - يغفر لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر الشرك، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، كما قال ابن عباس ـــ رضي الله عنهما، انظر تفسير ابن جرير ١٦٧/٥، والدر المنثور ٢٩٢/٢.

بشركهم، ويشيرون إلى آلهتهم ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ ﴾[النحل: ٨٦]، ولكنهم في ذلك الوقت يعترفون ببطلانها، ويقرون بعجزها عن نفعهم، ومع ذلك ترد عليهم تلك الآلهة المزعومة، وتكفر بشركهم، وتتبرأ من عبادتهم، وتكذب دعواهم، كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

وحينئذٍ يستسلمون جميعاً لله - تعالى -، ويخضعون لحكمه، ويعلمون أنهم مستحقون لعذابه، ﴿ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [النحل: ٨٧] (١).

(١) انظر تفسير السعدي ٤/٢٢٨.

الفصل الثاني

أساليب القرآن الكريم في مجادلة المشركين

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الاستفهام التقريري والإنكاري

المبحث الثاني: القصص القرآني

المبحث الثالث: ضرب الأمثال

المبحث الرابع: السبر والتقسيم

المبحث الخامس: التسليم

المبحث السادس: الاستدلال بأن ما يدعونه مستحيلٌ عقلاً

المبحث السابع: مجاراة الخصم لتبيين خطئه

المبحث الثامن: المباهلة

المبحث الأول: الاستفهام التقريري والإنكاري

تعريف الاستفهام:

الاستفهام لغة: طلب الفهم [١].

واصطلاحاً: طلب العلم بشيء، بواسطة أداة من أدوات الاستفهام [٢].

وعرفه بعضهم بقوله: "الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأدوات خاصة"[٣].

والاستفهام يخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مختلفة منها: التقرير، والإنكار.

فالإقرار في اللغة: الإذعان للحق [٤]، والتقرير: الحَمْل على الإقرار.

واصطلاحاً: حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده[٥].

وعرف بعضهم الاستفهام التقريري بقوله: "هو الاستفهام عن المقدمات البيِّنة البرهانية، التي لا يمكن لأحد أن يجحدها، وهي تدل على المطلوب لتقرير

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٧٠٤/٢، والإتقان ٢١٨/٢.

(٢) المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني ١٠٨/٢.

(٣) علم المعاني للدكتور بسيوني عبدالفتاح ص ١١٠/٢.

(٤) القاموس المحيط ٢٠٠/٢.

(٥) البرهان في علوم القرآن ٣٤٤/٢، وانظر المعجم المفصل في علوم البلاغة للدكتورة إنعام عكاوي ص١٣٢.

المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل [١].

والإنكار في اللغة: الجهل والجحود، والاستنكار: استفهامك أمراً تنكره[٢].

والاستفهام الإنكاري اصطلاحاً: هو الاستفهام الذي يراد به تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، وإما لأنه قد هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله [٣].

والاستفهام الإنكاري له معنيان: التوبيخ، والتكذيب [٤].

وقد سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب - الاستفهام - في محاورة المشركين، وإقناعهم ببطلان ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأنداد.

"والمتأمل في القرآن الكريم يظهر له بوضوح وجلاء أن الاستفهام فيه قد بلغ من الروعة والجدّة والغنى والتنوع في أساليبه ومعانيه حداً لا يدانيه فيه استفهام في كلام آخر"[٥].

والاستفهام في القرآن المكي أكثر منه في القرآن المدني، وذلك لأنه يخاطب مشركي مكة المكذبين المعاندين، وأكثر معانيه تفيد الإنكار والتعجب والتوبيخ

---

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٧٦.

(٢) انظر القاموس المحيط ٢٤٣/٢، ومختار الصحاح ص ٢٨٣، والمعجم الوسيط ٩٥١/٢.

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٩٣ بتصرف يسير.

(٤) انظر المنهاج الواضح للبلاغة ١٠٨/٢، والإتقان ٢١٩/٢.

(٥) أساليب الاستفهام في القرآن، لعبدالعليم السيد فودة ص ٤٩٦، بتصرف يسير.

والوعيد والاحتقار [١].

ومن أمثلة الاستفهام التقريري في سياق مجادلة المشركين ما يلي:

١) قوله تعالى: عن يوسف عليه السلام – مخاطباً صاحبيه في السجن: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾[يوسف: ٣٩].

فالمراد بهذا الاستفهام تقريرهما بإبطال ودنيهما [٢].

قال أبو حيان عند هذه الآية: "ثم أورد – عليه السلام – الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله: ﴿ ءَأَرۡبَابٞ ﴾ فأبرز ذلك في صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق، والمعنى: أعبادة أرباب متكاثرة في العدد خير أم عبادة واحد قهار، وهو الله؟ فمن ضرورة العاقل أن يرى خيريَّة عبادته"[٣].

٢) قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾[الرعد: ١٦].

قال الزمخشري: "﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيد عليهم ؛ لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بدٌّ أن يقولوا: الله، كقوله: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٨٧.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٧٤/١٢.

(٣) البحر المحيط ٣١٠/٥، بتصرف يسير.

﴿لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك؟ فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستئنافاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كَيْتَ وكيت.

ويجوز أن يكون تلقيناً، أي إن كَعُّوا[١] عن الجواب فَلَقِّنْهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه"[٢].

٣) قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٣].

قال القرطبي: "وهذا استفهام لتقرير الحجة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها؟"[٣].

ومن أمثلة الاستفهام الإنكاري ما يلي:

١) قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

قال الشوكاني: "والاستفهام في هذه الآية للتقريع والتوبيخ ؛ أي كيف يجعلون لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع عنهم"[٤].

٢) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ

---

(١) كَعُّوا: أحجموا وتركوا، انظر لسان العرب ٣٩١/٧.

(٢) الكشاف ٢٨٤/٢، و انظر تفسير أبي السعود ١٢/٥.

(٣) تفسير القرطبي ٧٤/١٣، وللاستزادة من الأمثلة انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبدالخالق عظيمة ٤٨٤/٣.

(٤) فتح القدير ٣٨٦/٢، بتصرف يسير، و انظر التحرير والتنوير ٢١٥/٨.

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

قال أبوالسعود[١]: "هذا إنكار ونفي لأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال"[٢].

٣) قوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠].

قال أبوالسعود: "هذا خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله – سبحانه – والاصطفاء بالشيء جعله خالصاً، والهمزة للإنكار"[٣].

٤) قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

قال أبوحيان: "حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة لـــه، وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقولـــه: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾، ثم وبخهـــم بقولـــه: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، أي مثل هذا لا ينبغي أن تقع فيه الغفلة"[٤].

---

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، فقيه، أصولي، مفسر، ولي القضاء في القسطنطينية وغيرها، ثم تولى الإفتاء، من مصنفاته: تفسيره: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القـــرآن الكـــريم، وتحافت الأمجاد في الفقه الحنفي، توفي عام ٩٨٢هـــ في القسطنطينية، انظـــر الأعـــلام ٥٩/٧، ومعجم المؤلفين ٣٠١/١١.

(٢) تفسير أبي السعود ٧٨/٨، بتصرف يسير.

(٣) تفسير أبي السعود ٧٣/٥، بتصرف يسير، و انظر أساليب الاستفهام في القرآن ص ١٩٦.

(٤) البحر المحيط ٤٨١/٥.

المبحث الثاني: القصص القرآني

أسلوب القصة أمر محبب للنفس، تصغى إليه وترتاح لسماعه، وتتأثر بما فيه، وتحفظه بسهولة، وتحرص على إشاعته بين الناس، وذلك لأنه يأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها.

وهو من أوسع أساليب القرآن الكريم، لاسيما في موضوع توحيد الله -تعالى-، والنهي عن عبادة من سواه.

وقد عُني القرآن الكريم بهذا الأسلوب، واتخذه سبيلاً للإقناع والتأثير [(١)].

وقصص القرآن الكريم كلها حق وصدق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[آل عمران: ٦٢].

وهي أيضاً أحسن القصص، وذلك لما تتميز به من الخصائص التي لا توجد في غيرها من القصص، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد ذكر الله - تعالى - في القرآن الكريم كثيراً من القصص، وأكثرها قصص الأنبياء - عليهم السلام -، وقد تضمنت دعوتَهم لأقوامهم ومواقف

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣٠٥، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٧٩، والمدخل إلى التفسير الموضوعي ص ١١٩، والقصة القرآنية هداية وبيان للدكتور وهبة الزحيلي ص ١١.

أقوامهم منهم، والمعجزات التي أيدهم الله – تعالى – بها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين منهم [١]، قال تعالى بعد أن ذكر جملة من أنبيائه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقد أمر الله – تعالى – رسوله ﷺ أن يقص على الناس رجاء أن يعتبروا فيؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦][٢].

والمقصود من قصص القرآن هو الاعتبار بها والاتعاظ بما فيها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب في مجادلة المشركين لإقناعهم ببطلان الشرك، وسوء عاقبته، يظهر ذلك جلياً في قصص الأنبياء – عليهم السلام –.

وسأقتصر على ذكر قصة واحدة من تلك القصص، وهي قصة إبراهيم – عليه السلام – مع أبيه وقومه، فهي من أوضح الأمثلة في هذا الباب، وقد

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن للقطان ص ٣٠٦.

(٢) انظر مع قصص السابقين في القرآن لصلاح الخالدي ٢٢/١.

ذكر الله – تعالى – هذه القصة في سور متعددة من القرآن الكريم في مشـــاهد متنوعة، وأساليب مختلفة، وسأتعرض في هذا المبحث لبعض مشاهدها المتعلقـــة بإنكار الشرك ومحاورة أهله.

دعوة إبراهيم – عليه السلام – لأبيه:

لقد دعا إبراهيم – عليه السلام – أباه إلى عبادة الله وحده، وحاول صرفه عن عبادة الأوثان، وبين له أنها لا تتمتع بشيء من خصائص الألوهية، فهـــي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تغني عنه شيئاً.

وقد تلطَّف – عليه السلام – في دعوته لأبيه، وأظهر له نصحه، وشفقته عليه، ولكن لم يجد ذلك مع أبيه الفظ الغليظ، فقد أصرّ على كفره وعناده، ورد نصيحة ابنه، بل هدده بالرجم[1] إن لم ينته عن سبّ آلهته، ودعوته إلى التوحيد، ثم أمره بهجره زمناً طويلاً، فقابل إبراهيمُ – عليه السلام – هذه القسوةَ والشدة بالرفق واللين [2]، قال تعالى واصفاً تلك المحاورة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾

---

(١) واختلف في المراد بالرجم، فقيل: بالشتم والكلام القبيح، وقيل: بالحجارة، انظر تفسير ابن جرير ٣٤٧/٨، وزاد المسير ١٦٦/٥.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٣٤٦/٨، وتفسير ابن كثير ١٢٩/٣، وتفسير السعدي ١١٤/٥.

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

قال الزمخشري عند هذه الآيات: "انظر حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع،كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق[1] مساق، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن ؛ حيث لم يَسِم[2] أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس عندك، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه، ثم ثبَّطَه ونهاه عما كان عليه مبيناً له أن الشيطان الذي استعصى على ربه الرحمن هو عدوه الذي لا يريد به إلا كل هلاك وخزي ونكال، وهو الذي ورطه في هذه الضلالة، وأمره بها وزينها له، ثم خوفه سوء العاقبة، وما يجره عليه ما هو به من التبعة والوبال، و لم يخل ذلك من حسن الأدب ؛ حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، ولكن قال: أخاف أن يمسك عذاب، فذكر الخوف والمس ونكَّر العذاب، وصدَّر كل نصيحة من النصائح

(١) أرشق: أحسن، انظر معجم الوسيط ٣٤٧/١.

(٢) يَسِم: يصف، انظر المعجم الوسيط ١٠٣٢/٢.

الأربع بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً.

ولما هدم مذهب أبيه بالحجج القاطعة، وناصحه هذه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه، ولم يقابل: (يَا أَبَتِ) بـــ (يا بُني)، وأنكر عليه رغبته عن آلهته، وتوعده بـــالرجم، وأمره أن يهجره زماناً طويلاً، فقابل إبراهيم – عليه السلام – كل ذلك بغايـــة الرفق واللين"[١].

وقال أبو السعود: "ولقد سلك – عليه السلام – في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل، لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا يَنْكَب[٢] بالكلية عن مَحَجَّة[٣] الرشاد"[٤].

مناظرته – عليه السلام – للملك الذي ادعى الربوبية:

عرض القرآن للقصة: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

---

(١) الكشاف ٤١٢/٢ بتصرف واختصار.

(٢) يَنْكَب: يعدل ويميل، انظر مختار الصحاح ص(٢٨٢).

(٣) المَحَجَّة: جادة الطريق، مختار الصحاح ص(٥٢).

(٤) تفسير أبي السعود ٢٦٧/٥.

ففي هذه الآية يقص الله – تعالى – مناظرة نبيه إبراهيم – عليه السلام – للملك الجبار الذي غره ملكه وأطغاه فادَّعى الربوبية، وأنكر وجود الله – تعالى –، ودعا الناس إلى عبادة نفسه، وهو ملك بابل[١] نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقد كان قد طلب من إبراهيم – عليه السلام – دليلاً على وجود الله – تعالى – فذكر له – عليه السلام – دليلاً على ذلك، وهو إحياء النفوس وإماتتها، فادّعى الملك أنه يستطيع ذلك، وأراد بذلك أنه يأتي بالرجلين قد استحقا القتل فيقتل أحدهما ويعفو عن الآخر، وهذه مكابرة منه وتمويه وتزوير، فإن المقصود بالإحياء والإماتة إيجاد الحياة في المعدومات، وإزالتها عند انتهاء الأعمار بالممات، ولما رأى إبراهيم – عليه السلام – تكبُّر هذا الطاغية وتجاهله معنى الإحياء والإماتة قال له مبطلاً لمقولته، ناقضاً لفريته، ملزماً له بِطَرْدِ[٢] دليله إن كان صادقاً: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾، وعند ذلك بهت ذلك الجبار، وانقطعت حجته، ولم يجد جواباً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣].

إنكاره على قومه عبادة الأصنام وتكسيره لها:

عرض القرآن للقصة: قال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ

(١) بابل: مدينة قديمة كانت في العراق، وتقع على نهر الفرات، انظر معجم البلدان ٣٠٩/١.

(٢) أي: إجراؤه على شبيهه.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣٢٠/١، وتفسير السعدي ٣١٩/١، والقصة القرآنية للزحيلي ص(٥٩).

وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

ففي هذه الآيات يذكر الله – تعالى – قصة خليله إبراهيم –عليه السلام–

الذي امتن عليه بالرشد، وألهمه الحق والحجة [١]، وتفضل عليه بالنبوة، يذكر - تعالى - قصته مع قومه وإنكاره عليهم عبادة الأصنام وتكسيره لها، حيث سألهم سؤال استنكار عن هذه الأصنام التي مثلوها، وصوروها على صور بعض المخلوقات ثم أقاموا على عبادتها، فلم يكن لهم جواب ودليل على ذلك إلا التقليد الأعمى لآبائهم، فرد عليهم - عليه السلام - بأنهم هم وآباؤهم في ضلال مبين، وأي ضلال أعظم من ضلال الشرك؟ إن الباطل لا يمكن أن يكون حقاً وإن فعله الآباء والأجداد، فردوا عليه متسائلين مستغربين: هل ما جئتنا به هو الحق أم هو كلام لاعب مستهزئ؟ فأجابهم - عليه السلام - إجابة المؤمن الواثق مبيناً سفههم، وقلة عقولهم، وغفلتهم عن دلائل الوحدانية: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، إن الرب الذي يستحق العبادة هو الذي خلق السموات والأرض والمتصرف فيهما، وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة رسله - عليهم الصلاة والسلام-؟.

ثم أقسم - عليه السلام - قسماً أسمعه بعض قومه أن يكيد لأصنامهم كيداً يريهم به عجزها وضعفها وعدم قدرتها على الانتصار لأنفسها.

وكان لهم عيد يخرجون إليه، فلم يخرج معهم إبراهيم - عليه السلام - حينما خرجوا معتذراً بأنه سقيم، فلما تولوا عنه وخرجوا ذهب إلى أصنامهم بخفية وكسرها كلها إلا كبيرها، وذلك لأجل أن يرجعوا إليه ويظنوا أنه هو

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الذي كسرها غيرةً منه، لأنها تعبد معه، ولكي يعلموا أن هذه الأصنام لا تدفع عن نفسها ولا عن غيرها، حيث لم يدافع هذا الكبير عن صغاره.

فلما رجع قومه من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي غضبوا لذلك وامتعضوا [١]، وسألوا عمن فعل ذلك بها ورموه بالظلم، فأخبرهم بعض الناس أنهم سمعوا شاباً اسمه إبراهيم يعيب هذه الأصنام ويذكرها بسوء، فلما تحققوا أنه إبراهيم جاؤا به على مرأى من الناس ومسمع لكي يحضروا ويشاهدوا مصير من أهان آلهتهم وكسرها.

فلما حضر الناس وحضر إبراهيم – عليه السلام – سألوه هل هو الذي كسر أصنامهم؟ فأجابهم إبراهيم – عليه السلام – ملزماً لهم مقيماً الحجة عليهم بأن الذي كسرها هو كبيرها غضباً عليها لما عبدت معه، وأمرهم أن يسألوا الأصنام التي كُسّرت لِمَ كسرت، والصنم الكبير الذي لم يكسَّر لأي شيء كسرها؟ فإن كانوا قادرين على النطق فإنهم سيخبرونكم، وأراد بذلك أن ينبههم إلى حقارة هذه الأصنام وعدم أهليتها للعبادة، حيث لا تنطق ولا تسمع ولا تبصر، وعند ذلك رجع قومه بالملامة على أنفسهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ولزمتهم الحجة بإقرارهم بأن ما هم عليه باطل[٢]، ولكنهم لم يستمروا على ذلك، فقد رجعوا إلى غيهم وانتكست عقولهم، ثم عادوا إلى المجادلة بالباطل، واحتجوا على إبراهيم – عليه السلام – قائلين له: إنك تعلم أن هذه الآلهة لا تنطق، فلماذا تأمرنا أن نسألها؟،

(١) امتعضوا: غضبوا وتألموا، انظر المعجم الوسيط ٨٧٧/٢.

(٢) وقيل: لاموا أنفسهم لعدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، انظر تفسير ابن كثير ١٩٢/٣.

فقال لهم إبراهيم – عليه السلام – عندما أقروا بأنها لا تنطق ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها ولا عن غيرها: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ، إن هذا هو عين الضلال وغاية الحُمْق والسفاهة: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، أين عقولكم أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال؟

فلما أقام – عليه السلام – عليهم الحجة، ودحض شبهتهم وأبان عجزهم عدلوا إلى استعمال القوة ولجؤوا إلى البطش والشدة، حيث حكموا عليه بالإحراق بالنار انتصاراً لآلهتهم الباطلة، حيث جمعوا حطباً كثيراً وأضرموا ناراً عظيمة وألقوه فيها، ولكن هيهات أن تمسه بسوء، والله – تعالى – حافظه وناصره؟ فقد أمر الله – تعالى – تلك النار أن تكون برداً وسلاماً عليه، فكانت عليه برداً وسلاماً ؛ حيث لم يصبه منها أذى أو مكروه، وبطل كيد المشركين، وغلبهم الله فكانوا هم الخاسرين في الدنيا والآخرة [1].

مناظرته – عليه السلام – لعباد الكواكب من قومه:

يقول الله – تعالى–: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٥/٩، وتفسير ابن كثير ١٩٠/٣، وتفسير السعدي ٢٣٨/٥، والتفسير المنير ٧٣/١٧، والقصة القرآنية ص(٦١)، والقصص القرآني للدكتور فضل عباس ١٥٩.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩].

ففي هذه الآيات يذكر الله – تعالى – قصة إبراهيم – عليه السلام – مع قومه عَبَدَة النجوم، حيث أنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام واتخاذها آلهة من دون الله، وبين أن ذلك ضلال واضح بيِّن حيث يعبد من لا يستحق العبادة من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

ثم يذكر – تعالى – منّته على إبراهيم – عليه السلام – حيث أراه خلق السموات والأرض وما فيهما من العجائب والمعجزات الدالة على وحدانية الله وعظمته.

ثم يصور – سبحانه وتعالى – تلك المناظرة التي جرت بين خليله إبراهيم – عليه السلام – وعُبَّاد الكواكب الذين يعبدون النجوم ويجعلون لها الهياكل في الأرض فيعبدونها، وقد قصد – عليه السلام – بهذه المناظرة إبطال ألوهية هذه الكواكب وعدم استحقاقها للعبادة.

فلما أظلم عليه الليل رأى كوكباً مضيئاً فقال على وجه التنزُّل مع الخصم

والتسليم له: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [١]، فلما غاب ذلك الكوكب قال: لا أحب الذي يغيب ويختفي عن عبده،"فإن المعبود لابد أن يكون قائماً بمصالح من عبده ومدبرٌاً له في جميع شؤونه"[٢].

ثم انتقل إلى كوكب آخر أشد إضاءة من الأول، وهو القمر فإنه لما رآه طالعاً مضيئاً قد زاد نوره على نور الكوكب قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ، فلما غاب تبيّن أنه ليس أهلاً للعبادة، لأن المعبود الحق لا ينبغي أن يغيب عن عابده كما مضى، وعند ذلك سأل الله – تعالى – الهداية إلى الحق والعصمة من الضلال.

ثم انتقل إلى كوكب آخر أكبر من الكوكب والقمر وأكثر إضاءة منهما، وهو الشمس، فإنه لما رآها طالعة مضيئة قال تنزلاً وفرضاً: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، فلما غابت صرح حينئذٍ بعقيدته وأعلن البراءة من أصنام قومه، وأسلم وجهه لفاطر السموات والأرض وحده دونما سواه، وأبطل اعتقاد قومه الضالين بالحجة الباهرة، والبرهان الواضح [٣].

---

(١) قال ابن كثير: "وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة، فروى ابن جرير من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير. والحق أن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، تفسير ابن كثير ١٥٦/٢ باختصار، و انظر تفسير السعدي ٤٢٥/٢، وأضواء البيان ١٨٠/٢، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ص(١٨٠).

(٢) تفسير السعدي ٤٢٤/٢.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٢٣٨/٥، وتفسير ابن كثير ١٥٥/٢، وتفسير السعدي ٤٢٣/٢، والتفسير المنير ٢٦١/٧.

قال ابن القيم تعليقاً على هذه المناظرة: "لقد ناظر إمامُ الحنفاء – صلوات الله وسلامه عليه – قومَه في بطلان إلهية الكواكب أحسن منـــاظرة وأبينـــها، ظهرت فيها حجته، ودُحضت حجتهم، فقال بعد أن بيّن بطلان إلهية الكوكب والقمر والشمس بأُفُولها وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكـــون إلا شاهداً غير غائب، كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور، نافعـــاً لعباده، يملك لعابده الضر والنفع فيسمع كلامه ويرى مكانه، ويهديه ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه، وذلك ليس إلا لله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابـــة صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها فقـــال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى أنه – سبحانه – خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوامة لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويديرها ويربُّها [١]، والمحتاج المخلوق المربوب المدبَّر لا يكون إلهاً"[٢].

(١) يَرُبُّها: يملكها، انظر القاموس المحيط ٩٣/١.

(٢) إغاثة اللهفان ٦١٠/٢.

المبحث الثالث: ضرب الأمثال

تعريف المثل:

المثل: هو تمثيل شيء بشيء لوجود عنصر أو أكثر من عناصر التشابه بينهما[١].

وعرَّفه ابن القيم بقوله: "هو تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار[٢] أحدهما بالآخر [٣].

فوائد ضرب الأمثال:

وضرب الأمثال له فوائد كثيرة، وأهداف متنوعة، منها: التوضيح، وتقريب المعنى إلى الذهن، وتثبيت المعنى في النفس بتذكر صورته.

يقول الزمخشري: "ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المُتَخَيَّل في صورة المتحقق، والمُتَوَهَّم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسَوْرَة[٤] الجامح[٥] الأبي"[٦].

---

(١) الأمثال القرآنية للميداني ص(٢٢).

(٢) الاعتبار: القياس، انظر التعريفات ص(٣٠).

(٣) إعلام الموقعين ١/١٥٠.

(٤) السَّوْرَة: الشدة والحدة والهيجان، انظر المعجم الوسيط ١/٤٦٢.

(٥) الجامح: هو من ركب هواه فلم يمكن رده، انظر المرجع السابق ١/١٣٢.

(٦) الكشاف ١/٣٧.

ويقول الزركشي[١]: "وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، الاعتبار، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس ؛ حيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

ولقد امتنّ الله – تعالى – على عباده بأن ضرب لهم الأمثال، وذلك لما تضمنته من الفوائد، قال – تعالى –: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، وقال – تعالى –: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]"[٢].

أمثلة ضرب الأمثال في سياق مجادلة المشركين:

استعمل القرآن الكريم أسلوب ضرب الأمثال في مجادلة المشركين وإقناعهم ببطلان الشرك ؛ حيث ضرب الأمثال الكثيرة لبيان فساد الشرك، وإظهار عجز آلهة المشركين وحقارتها، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

---

(١) هو أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشافعي المصري، فقيه، أصولي، مفسر، من مصنفاته: البرهان في علوم القرآن، والبرهان في أصول الفقه، توفي عام ٧٩٤هـ، انظر طبقات المفسرين ١٥٨/٢، والأعلام ٦٠/٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٥٧٢/١، بتصرف يسير، و انظر الإتقان ٣٦٤/٢.

١) قوله – تعالى –: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الروم: ٢٨].

ففي هذه الآية الكريمة يضرب الله – تعالى – للمشركين مثلاً من واقع أنفسهم يعرفونه ويقرون به، وهو أن أحدهم لا يرضى أن يشاركه أحد من عبيده الأرقاء في رزقه، بحيث يكون هو وإياه متساويين فيه كالشريك الحر، يخاف قسمه للمال كما يخاف قسمة الشريك الحر لماله؛ فإذا كانوا لا يرضون بذلك لأنفسهم فكيف يرضون لله – تعالى – شركاء من خلقه مع أنهم مقرون بأنهم عبيد مملوكون له – سبحانه –، إن هذا هو غاية الجهل والسفه [(١)].

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "وهذا دليل قياس احتج الله – سبحانه – به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج أن يَأْخُذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها، معلوم لها..."[(٢)].

٢) قوله – تعالى –: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٢٩].

ففي هذه الآية يضرب الله – تعالى – مثلاً للمشرك في إشراكه، والموحد

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٨٢، وتفسير ابن كثير ٣/٤٤١، وتفسير السعدي ٦/١١٣.
(٢) إعلام الموقعين ١/١٥٩.

في توحيده وإخلاصه، حيث يشبه المشرك بالعبد الذي يملكه شركاء كثيرون، وهم مع ذلك متنازعون فيه غير متفقين، كل له فيه حاجة ومطلب يخالف حاجة الآخر فيه مطلبه، كيف تتصور حالة هذا العبد مع هؤلاء الشركاء المتشاحين المتنازعين؟ أمَّا الموحد فيشبهه الله – تعالى – بالعبد الخاص برجل واحد، لا يملكه غيره ولا يتصرف فيه أحد سواه، فهل يستوي هذا وهذا؟ كلا فشتان بينهما.

كذلك المشرك الذي يدعو عدة آلهة فهو دائماً في تخبط وحيرة وضلال[1].

أما المخلص الموحد فهو في راحة تامة، وطمأنينة كاملة.

"وهذا من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه، ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون"[2].

٣) قوله – تعالى –: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

ففي هذه الآية يضرب الله – تعالى – مثلاً للمشركين الذين يدعون غير الله – تعالى –، حيث يشبههم بالرجل العطشان الذي يبسط يديه ويمدها إلى البئر لكي يرتفع إليه الماء فيشربه، وأنى له ذلك، فإن الماء جماد لا يمكن أن يستجيب له ويرتفع إليه من قاع البئر حتى يبلغ فاه.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦٣١/١٠، وتفسير ابن كثير ٥٧/٤، وتفسير السعدي ٤٦٨/٦.

(٢) إعلام الموقعين ٢٠٤/١.

وهكذا المشركون الذين يدعون مع الله آلهة أخرى فإنها لا تستجيب لهم، ولا ينتفعون بها في الدنيا ولا في الآخرة [١].

قال القرطبي: "ضرب الله - عز وجل - الماء مثلاً ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدرك مثلاً بالقابض الماء باليد"[٢].

٤) قوله - تعالى -: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال ابن كثير: "هذا مثل ضربه الله - تعالى - للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء"[٣].

٥) قوله - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي هذه الآية يضرب الله - تعالى - مثلاً لبيان عجز آلهة المشركين

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٦٣/٧، وتفسير ابن كثير ٢٥٢/٢، وتفسير السعدي ٩٦/٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٩٧/٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٢٤/٣، و انظر إعلام الموقعين ١٨١/١، وتفسير السعدي ٨٧/٦.

وحقارتهم حيث لا يستطيعون خلق ذباب صغير، حتى وإن اجتمعوا كلهم على ذلك، ثم يبين – سبحانه – مظهراً آخر من مظاهر عجز تلك الآلهة وضعفها، وذلك أنهم لا يستطيعون استنقاذ ما سلبه الذباب منهم، فكيف تعبد هذه الآلهة وقد بلغت هذا المبلغ من العجز والضعف؟ [١].

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم على خلقه، فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدرون على الانتصار على الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، وعلى الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله – سبحانه – في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة"[٢].

---

(١) انظر تفسير السعدي ٣٢٦/٥، والأمثال القرآنية ص(١٩٢).

(٢) إعلام الموقعين ١٨١/١.

المبحث الرابع: السَّبر والتقسيم

تعريف السَّبْر والتَقْسِيم:

هو أسلوب من أساليب الجدل، يستعمله المجادل لإبطال دعوى من يجادله، وهو متركب من أصلين:

أحدهما: حصر أوصاف الموضوع بطريق من طرق الحصر، ويسمى التقسيم.

والثاني: اختبار تلك الأوصاف المحصورة، وإبطال ما هو باطل منها، وإبقاء ما هو صحيح، ويسمى السبر، أو الترديد [١].

وقد عرفه الآمدي[٢] بقوله: "وهو في عرف الفقهاء: عبارة عن ترديد اللفظ بين احتمالين أحدهما ممنوع والآخر مسلّم، غير أن المطالبة متوجهة ببناء الغرض عليه"[٣].

وعرفه الزركشي بقوله: "هو كون اللفظ متردداً بين أمرين: أحدهما ممنوع، والآخر مسلم، واللفظ محتمل لهما غير ظاهر في أحدهما"[٤].

وقال الشنقيطي: "اعلم أن مقصود الجَدلين من هذا الدليل: معرفة الصحيح

---

(١) انظر أضواء البيان ٣٩٥/٤، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ص(٧٤).

(٢) هو أبوالحسن علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي الشافعي، أصولي متكلم، من مصنفاته: الإحكام في أصول الأحكام، ومختصره منتهى السول في أصول الفقه، توفي عام ٦٣١هـ في دمشق، انظر البداية والنهاية ١٤٠/١٣، والأعلام ٣٣٢/٤.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ٣٢٩/٤.

(٤) البحر المحيط للزركشي ٣٣٢/٥.

والباطل من أوصاف محل النزاع، وهو عندهم يتركب من أمرين:

الأول: حصر أوصاف المحل.

والثاني: إبطال الباطل منها وتصحيح الصحيح مطلقاً، وقد تكون باطلة كلها فيتحقق بطلان الحكم المستند إليها، وقد يكون بعضها باطلاً وبعضها صحيحاً"[1].

أمثلة السبر والتقسيم في سياق مجادلة المشركين:

تكرر ورود هذا الأسلوب في القرآن الكريم في سياق مجادلة المشركين، ومن أمثلة ذلك:

١) قوله - تعالى -: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وهاتان الآيتان فيهما إنكار على مشركي العرب الذين حرموا بعض

(١) أضواء البيان ٣٩٨/٤.

إناث الأنعام كالبحيرة والوَصِيلة والسائبة، وبعض الذكور كالحامي [١]، دون غيرها، حيث يبين الله – سبحانه وتعالى – أنه خلق من الأنعام ثمانية أصناف: الضأن والمعز والإبل والبقر، وكل نوع من هذه الأنواع الأربعة إما ذكر وإما أنثى، ولم يحرم شيئاً من ذلك.

فالله – تعالى – في هاتين الآيتين يقول لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين يحرمون بعض هذه الأنواع دون بعض هل حرم الله الذكرين من الضأن والمعز، أم الأنثيين منهما، وهل حرم الذكرين من الإبل والبقر أم الأنثيين منهما، أم حرم ما اشتملت عليه أرحام هذه الإناث؟ أخبروني عن دليلكم على هذا التحريم الذي زعمتموه، وهذا التفصيل الذي ذكرتموه، إن كنتم صادقين في دعواكم؟.

والحقيقة أنه لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل إلا واحداً من هذه الثلاثة؛ فإن كان المحرم منها الذكر وجب أن يكون جميع ذكورها حراماً، وإن كان المحرم منها الأنثى وجب أن يكون جميع إناثها حراماً، وإن كان المحرم منها ما حملته بطونها وجب أن يكون جميع أولادها حراماً، وهم لا يقولون بشيء من ذلك.

---

(١) البحيرة: الناقة تلد خمسة أبطن آخرها ذكر، فيبحرون أذنها أي: يشقونها ويخلون سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، والوصيلة: الشاة تلد ذكراً وأنثى فيقال للأنثى: وصلت أخاها، فلا يذبح الذكر، والسائبة: هي الناقة تترك وتُسَيَّب ويحرم الانتفاع بها كالبحيرة، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة، والحامي: هو الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن، فيقولون: حُمي ظهره، فيترك ولا يمنع من ماء ولا مرعى، انظر تفسير البيضاوي ٢٨٥/١.

ولما بيّن – سبحانه وتعالى – بطلان قولهم وفساده، قال لهم متهكماً بهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ ، هل كنتم حضوراً حينما أمركم الله – تعالى – بهذا التحريم، أو أوحى به إليكم؟ كلا بل هو محض الكذب والجهل والافتراء والتضليل والظلم، والله لا يهدي القوم الظالمين [١].

قال السيوطي[٢] مبيناً وجه الاستدلال بهاتين الآيتين على السبر والتقسيم: "إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، رد – تعالى – ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم فقال: إن الخلق لله، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى فمم جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علته؟ لا يخلوا إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدرى له علة وهو التعبدي، بأن أُخذ ذلك عن الله – تعالى –، والأخذ عن الله – تعالى – إما بوحي أوإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ فهذه وجوه التحريم ؛ لا تخرج عن واحد منها، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً، والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً، والثالث يلزم عليه تحريم

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٧٦/٥، و تفسير ابن كثير ١٩٠/٢، و تفسير السعدي ٤٨٩/٢، والتفسير المنير ٧٢/٨، وتفسير الجزائري ٦٦٩/١.

(٢) هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي المصري، محدث مفسر، مشارك في أنواع العلوم، له مصنفات كثيرة جداً منها: الدر المنثور في التفسير المأثور، والإتقان في علوم القرآن، والجامع الصغير في الحديث وغيرها، توفي عام ٩١١هـ، انظر الأعلام ٣٠١/٤، ومعجم المؤلفين ١٢٨/٥.

الصنفين معاً، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة، لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم والأخذ عن الله بلا واسطة باطل و لم يدَّعوه، وبواسطة رسول كذلك ؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدَّعى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال"(١).

٢) ومن أمثلة ذلك قوله – تعالى –: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧–٨٠].

وسبب نزول هذه الآيات هو ما ورد عن خَبَّاب(٢) – رضي الله عنه – قال: ((كنت رجلاً قيناً (٣)، وكان لي على العاص بن وائل(٤) دين، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قال قلت: لن أكفر به حتى

(١) الإتقان ٣٧٩/٢، و انظر أضواء البيان ٣٩٧/٤.

(٢) هو أبو يحيى خباب بن الأَرتِّ بن جندلة التميمي، من السابقين إلى الإسلام، وكان من المستضعفين في مكة، شهد بدراً وغيرها، مات في الكوفة عام ٣٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٢٣/٢، والإصابة ١٠١/٢.

(٣) قيناً: أي حداداً، انظر مختار الصحاح ٢٣٣.

(٤) هو العاص بن وائل السهمي، من صناديد قريش، آذى خباباً – رضي الله عنه –، وروي أنه نزلت فيه سورة الكوثر، هلك في السنة الأولى من الهجرة، انظر البداية والنهاية ٢٣٥/٣–٢٥٩، ١٠٤، ١٠٥.

تموت ثم تبعث [١]، قال: وإني لمبعوث من بعد الموت؟ فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد، قال: فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [٢].

قال الشنقيطي موضحاً التقسيم والترديد الوارد في هذه الآيات: "والتقسيم الصحيح في هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة، والسبر الصحيح يبطل اثنين منها ويصحح الثالث، وبذلك يتم إلقام العاص بن وائل الحجر في دعواه: أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً.

أما وجه حصر المحل في ثلاثة فهو أنا نقول: قولك إنك تؤتى مالاً وولداً يوم القيامة لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء:

الأول: أن تكون اطلعت على الغيب، وعلمت أن إيثارك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله لك في اللوح المحفوظ.

والثاني: أن يكون الله أعطاك عهداً بذلك ؛ فإنه إن أعطاك عهداً لن يخلفه.

الثالث: أن تكون قلت ذلك افتراءً على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب.

---

(١) قال ابن حجر: "قوله: ((حتى تموت ثم تبعث)) مفهومه: أنه يكفر حينئذٍ لكنه لم يرد ذلك، لأن الكفر حينئذٍ لا يتصور، فكأنه قال: لا أكفر أبداً، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به"، فتح الباري ٨/٤٣٠.

(٢)أخرجه البخاري ٨/٤٣١ ح(٤٧٣٥)، و مسلم ٤/٢١٥٣ ح(٢٧٩٥).

وقد ذكر – تعالى – القسمين الأولين في قوله: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ مبطلاً لهما بأداة الإنكار [١]، ولا شك أن كلا هذين القسمين باطل، لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب، و لم يتخذ عند الرحمن عهداً، فتعين القسم الثالث، وهو أنه قال ذلك افتراءً على الله، وقد أشار – تعالى – إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع، وهو قوله: ﴿ كَلَّا ﴾أي لأنه يلزمه ليس الأمر كذلك، لم يطلع الغيب، و لم يتخذ عن الرحمن عهداً، بل قال ذلك افتراءً على الله، لأنه لو كان أحدهما حاصلاً لم يستوجب الردع عن مقالته كما ترى"[٢].

٣) ومن أمثلة السبر والتقسيم في سياق مجادلة المشركين في القرآن الكريم قوله – تعالى –: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[الطور: ٣٥].

يقول ابن القيم مبيناً التقسيم والترديد المذكور في هذه الآية: "تأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول – تعالى – هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوعٌ من غير صانع، ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قَفْر[٣] لا بناء فيها، ثم مر فيها فرأى بنياناً وقصوراً

---

(١) وهي همزة الاستفهام.

(٢) أضواء البيان ٣٩٥/٤، و انظر تفسير السعدي ١٣٤/٥.

(٣) قَفْرٌ: مفازة لا نبات فيها ولا ماء، مختار الصحاح ص(٢٢٨).

وعمارات محكمة لم يتخالجه[١] شك ولا ريب أن صانعاً صنعها وبانياً بناها.

ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ وهذا أيضاً من المستحيل أن يكون العبد موجداً خالقاً لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، ولا أصبعاً ولا ظفراً، ولا شعرة كيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه؟.

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقاً خلقهم، وفاطر فطرهم فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلهاً غيره وهو وحده الخالق لهم؟"[٢].

(١) يتخالجه: ينازعه، انظر القاموس المحيط ٢٥٣/١.

(٢) الصواعق المرسلة ٢٩٣/٢، و انظر أضواء البيان ٣٩٨/٤.

المبحث الخامس: التسليم

تعريف التسليم:

التسليم لغة: يطلق على معانٍ منها: بذل الرضا بالحكم [١].

واصطلاحاً: "هو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه"[٢].

وهو أسلوب من أساليب الجدل، وقد استخدمه القرآن الكريم في مجادلة المشركين.

أمثلة التسليم في سياق مجادلة المشركين:

ورود هذا الأسلوب في القرآن الكريم في سياق مجادلة المشركين عدة مواضع منها:

١) قوله - تعالى -: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومعنى الآية - كما يقول السيوطي -: "ليس مع الله من إله، ولو سُلِّم أن معه - سبحانه وتعالى - إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٠٨١، ومختار الصحاح ص(١٥٥).

(٢) مناهج الجدل (٨٢).

خلق، وعلوٍّ بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه من المحال"[1].

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه – سبحانه – إله لكان له خلق وفعل وحينئذٍ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل إن قَدِر على قهره وتفرد بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة:

– إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

– وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

– وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد ومَلِك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق، وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا رب له غيره، فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما

(١) الإتقان ٢/٣٨١.

يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون لـــه إلهـــان معبودان"[١].

٢) ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ففي هذه الآية يخبر الله – سبحانه وتعالى – أنه لو كان في السموات والأرض آلهة حقيقية غيره – سبحانه – لفسدتا وفسد من فيهما من المخلوقات، لأنه لو كان فيهما إلهان مدبران أو أكثر وقع بينهما الاختلاف والتعارض، وإذا حصل ذلك اختل النظام، واضطربت الأحوال، ووجد الخلل والفساد، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر وعدم استحقاقه للألوهية، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن [٢].

والمشاهد أن العالم العلوي والسفلي في غاية ما يكون الانتظام والتناســـق والاتفاق والكمال، فلا خلل ولا تناقض ولا ممانعة ولا تعارض ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، فتعين أن لهذا الكون إلهاً واحـــداً يـــدبِّره ويصرفه كيف شاء، وهو الله الواحد القهار، ولذلك نزه الله – تعالى – نفســـه

(١) الصواعق المرسلة ٤٦٣/٢، و انظر تفسير ابن جرير ٢٤٠/٩.

(٢) واعترض على هذا بأنه يمكن أن تتفق إرادة اثنين فلا يقع خلاف ولا فساد، وأجيب بأنه يستحيل وجود اثنين لا تنفك إرادة أحدهما عن الآخر، متكافئين في العلم والقـــدرة والإرادة والحكمـــة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة أحدهما على صفة الآخر، انظر كتاب استخراج الجـــدال مـــن القرآن الكريم لابن الحنبلي ص(٤٩).

في ختام الآية عن شرك المشركين، وافتراء الكافرين [١].

٣) ومثل هاتين الآيتين قوله – تعالى –: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

وهذه الآية فيها قولان للمفسرين:

القول الأول: لو كان مع الله – تعالى – آلهة أخرى – كما يزعم المشركون –لابتغوا إلى منازعته ومغالبته طريقاً كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض [٢].

القول الثاني: لو كان مع الله آلهة أخرى – كما يزعم المشركون لطلبوا طريقاً ووسيلة يتقربون بها إليه وينالون بها رضاه [٣].

وهذه الآيات الثلاث يستدل بها علماء الكلام على دليل التمانع، ويجعلونه دليلاً على توحيد الربوبية.

وتقرير هذا الدليل عندهم أن يقال: لو فرض للعالم صانعان، فأراد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه، فلا يخلو الأمر من أحد احتمالات ثلاثة:

١– ألا يحصل مراد كل منهما، وهذا يستلزم عجزهما، والإله لا يكون عاجزاً.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٥/٩، و تفسير ابن كثير ١٨٤/٣، ٢٦٤، و تفسير السعدي ٢٢٠/٥، والتفسير المنير ٣٤/١٧.

(٢) ورجحه البغوي ١١٦/٣، والشوكاني ٣٢٥/٣، والشنقيطي ٥٣٩/٣، و انظر زاد المسير ٢٩/٥.

(٣) ورجحه ابن جرير ٨٤/٨، وابن تيمية انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٥٠/٩، وابن القيم انظر الصواعق المرسلة ٤٦٢/٢، وابن كثير ٤٤/٣، وابن أبي العز الحنفي انظر شرح الطحاوية ٤١/١.

٢- أن تنفذ إرادتهما معاً، وهذا محال لأنه يستلزم اجتماع الضدين، والضدان لا يجتمعان.

٣- أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، فيكون أحدهما عاجزاً مغلوباً، والعاجز المغلوب لا يكون إلهاً [(١)].

والمتأمل في هذه الآيات الثلاث يجد أنها سيقت لإثبات توحيد الإلهية، وليست لإثبات توحيد الربوبية، وإن كانت دالة عليه، وذلك لأن مشركي العرب الذين خوطبوا بهذه الآيات يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله وحده هو الخالق المالك المدبر، كما قال - تعالى - في الآيات التي تقدمت على آية"المؤمنون": ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

ولذلك استدل بعض العلماء بهذا الدليل على إثبات الوحدانية [(٢)].

---

(١) انظر كتاب الداعي إلى الإسلام لابن الأنباري ص(٢٢٢)، وتفسير الرازي ١٣٠/٢٢، وكتاب استخراج الجدال ص(٤٨)، و تفسير ابن كثير ٢٦٤/٣، وتفسير الألوسي ٢٥/١٧.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٦٩/٩، و تفسير ابن كثير ٢٦٤/٣، وشرح الطحاوية ٤٠/١، والتحرير والتنوير ٤١/١٧، وتفسير الألوسي ٢٨/١٧.

المبحث السادس: الاستدلال بأن ما يدعونه مستحيلٌ عقلاً

إن الشرك بجميع أنواعه مخالف للفطرة مناقض للعقل، وقد تقدم أن القرآن الكريم خاطب الفطرة المُسْتَكِنَّة[١] في نفس الإنسان، وذكَّرها بما هو مغروس فيها[٢]، كما سخر من عقول المشركين وسفه أحلامهم وضلل آرائهم، حيث يدعون مخلوقاً مثلهم لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً [٣]، وإلى جانب ذلك فإن القرآن الكريم سلك أسلوب الإقناع العقلي في مجادلة المشركين، حيث يثبت للمشركين أن ما يدّعونه من الشرك محال عقلاً، وتقدم في مبحث التسليم ذكر بعض الآيات الدالة على استحالة وجود إله آخر مع الله – تعالى – وذلك لما يترتب على هذا القول من الأمور المخالفة للواقع المشاهد [٤].

ومن الآيات الدالة على استحالة الشرك عقلاً:الآيات الواردة في الرد على المشركين الذين ينسبون الولد لله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – فإن"إثبات الولد لله من أعظم الإشراك به"[٥]، وقد ادعى اليهود أن عُزيراً ابن الله، وادعى النصارى أن المسيح – عليه السلام – ابن الله، وادعى مشركو العرب أن الملائكة – عليهم السلام – بنات الله، فأبطل الله – تعالى – مقولة الجميع، وبيّن أنها مستحيلة عقلاً.

---

(١) المُستكنَّة: المستترة، انظر مختار الصحاح ص(٢٤٢).

(٢) انظر ص(٢٦١).

(٣) انظر ص(٢٩٥).

(٤) انظر المبحث السابق.

(٥) بدائع الفوائد ٣٣١/٤.

قال – تعالى –: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

ففي هاتين الآيتين ينكر الله – تعالى – على الذين ينسبون إليه – سبحانه وتعالى – الولد، من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم، حيث يتره – سبحانه – نفسه عن هذا القول الباطل، ثم يبين وجه فساده، واستحالته عند أولي العقول السليمة، وذلك من وجوه أربعة:

الأول: كون ما في السموات والأرض ملكاً له وعبيداً مربوبين تحت تدبيره يتصرف فيهم كيف شاء، فإذا كانوا كذلك كيف يكون أحد منهم ولداً له؟ فإن الولد لابد أن يكون بعض الوالد وشريكه ونظيره، ولا يمكن أن يكون مملوكاً للوالد أو مخلوقاً له.

الثاني: أنه مبدع السموات والأرض على غير مثال سبق، فكيف يصح أن ينسب إليه شيء من خلقه بالبنوة التي تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة؟ إن ذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض، قال – تعالى –: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ [يونس: ٦٨].

الثالث: أنه إذا أراد أمراً قال له كن، فيكون بمجرد أمره، فلا يستعصي عليه – سبحانه – شيء، ولا يمتنع منه، ومن كان كذلك فأي حاجة به إلى الولد؟ وهو لا يستكثر به من قلة، ولا يتعزز به من ضعف، ولا يستعين به على قضاء حاجة[1].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٥٤/١، وبدائع الفوائد ٣٣١/٤، و تفسير ابن كثير ١٦٥/١، وتفسير السعدي ١٢٩/١.

قال ابن جرير: "فمعنى الكلام: سبحان الله أنّى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعاً بدلالتها بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها[١] عليه"[٢].

وقال - تعالى -: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

وفي هاتين الآيتين يرد الله - تعالى - على المشركين الذين افتروا على الله - تعالى - الكذب، حيث نسبوا له - سبحانه - البنين والبنات بغير علم، ثم يبين بطلان قولهم وفساده، ومخالفته للعقل الصحيح، وذلك من وجوه:

الأول: أنه بديع السموات والأرض، وقد تقدم إيضاح هذا الوجه في الآية السابقة.

الثاني: أنه - سبحانه - ليس له صاحبة، أي زوجة، والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله - تعالى - لا يناسبه ولا يشبهه شيء من خلقه، فكيف يكون له ولد؟ [٣].

الثالث: ما قرره ابن القيم بقوله: "أن يقال لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل

---

(١) احتذاها: صورها، انظر مختار الصحاح ص(٥٤)، والمعجم الوسيط ١٦٣/١.

(٢) تفسير ابن جرير ٥٥٦/١.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١٦٥/٢، و تفسير السعدي ٤٤٦/٢، وانظر أيضاً ص(٥٥) من هذه الرسالة.

شيء عليم، وهو – تعالى – لا يعلم له ولداً، فيستحيل أن يكون لـه ولـدٌ لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه إذ لو كان لعلمـه، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن"[(١)].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: ((قال الله: كذبني ابن آدم و لم يكن له ذلك، وشتمني و لم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فـزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسـبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً)) [(٢)].

وقد بيّن الله – تعالى – بطلان إلهية المسيح – عليه السلام – ودحر مزاعم النصارى التي يعتقدونها فيه، فقال – تعالى –: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

لقد تضمنت هذه الآية ثلاثة براهين تدل على فساد القول بألوهية المسيح – عليه السلام – ومخالفته للعقل، وهي كما يلي:

الأول: أن عيسى – عليه السلام – كغيره من الرسل السـابقين، جـاء بالآيات والمعجزات، كما جاؤا بأمثالها، فإن كانت شبهتكم فيـه أن الله أبـرأ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى على يده فقد أحيى الله – تعالى – العصا لموسى – عليه السلام – وفلق له البحر، ومع ذلك لم تقولوا بألوهيته.

---

(١) بدائع الفوائد ٤/٣٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٨/١٦٨ ح(٤٤٨٢).

وإن كانت شبهتكم فيه أنه خلق من غير أب، فقد خُلق آدم من غير أب ولا أم، ومع ذلك لم يقل بألوهيته أحد [١].

الثاني: أن عيسى – عليه السلام – وأمه كانا محتاجين إلى الطعام والشراب لكي تقوم بذلك أبدانهما كسائر الناس، وهذا دليل واضح على عجزهما وحاجتهما إلى غيرهما، والإله غني عن غيره [٢].

الثالث: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يُستحيى من ذكرها، ومن كان كذلك لا يليق أن يكون إلهاً أو ولداً للإله[٣].

وقال – تعالى – مبيناً بطلان مقولة مشركي العرب الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله – تعالى الله عن ذلك –: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٥-١٩].

---

(١) انظر مناهج الجدل ص(٢٦١).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦٥٤/٤، والصواعق المرسلة ٤٨٢/٢، و تفسير ابن كثير ٨٤/٢، ومناهج الجدل ص(٢٦٢).

(٣) انظر الصواعق المرسلة ٤٨٢/٢، و تفسير ابن كثير ٨٤/٢.

لقد جادل الله – تعالى – هؤلاء المشركين في هذه الآيات، وأبطل مقولتهم الكاذبة بالحجج الواضحة والبراهين الساطعة، وذلك من عدة وجوه:

الأول: أن الخلق كلهم عبيد الله – تعالى –، والعبودية تنافي الولادة، فالولد لا يكون عبداً للوالد.

الثاني: أن الولد جزء من والده مثيل له، والله – تعالى – ليس كمثله شيء.

الثالث: أنهم نسبوا إلى الله – تعالى – البنات مع أنهم يفضلون البنين على البنات، بل إن الواحد منهم إذا بشر بالأنثى حزن، وأنف من ذلك، واسودّ وجهه، حتى إنه يستتر عن الناس خجلاً من ذلك، إن العقل – لو كان مرجع القسمة إليه – يقتضي أن الله – تعالى – أولى بالبنين من البنات، فكيف يجعلون لله ما يكرهون من الصنفين؟!.

الرابع: أن الأنثى محل نقص في الظاهر والباطن، فهي في ظاهرها وصورتها محتاجة إلى الحلي والزينة لجبر النقص الحاصل في جمالها، وهي في المعنى ناقصة نظراً لعجزها عن الانتصار لنفسها والإفصاح عن حجتها.

الخامس: أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة، فكيف يتكلمون بشيء لم يشاهدوه أو يعلموه؟ ! [1].

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٣٥/٤، و تفسير السعدي ٦٣٧/٦، ومناهج الجدل ص(٢٣٩).

المبحث السابع: مجاراة الخصم لتبيين خطئه

من أساليب القرآن الكريم في مجادلة المشركين مجاراة الخصم المجادل لكي يَعْثُر ويتبين خطؤه، وذلك بأن تسلَّم[١] له بعض مقدماته التي استدل بها مع الإشارة إلى أنها لا تُنتج ما يريده منها، بل هي مساعدة على إنتاج ما يريده خصمه، والمراد من ذلك تبكيته وإلزامه بما لا يعترف به [٢].

وقد مثل السيوطي لهذا الأسلوب بمثال واحد وهو قوله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ٩ -١١].

"فكأن الرُسُل - عليهم الصلاة والسلام - قالوا في الرد على المنكرين

---

(١) والتسليم هنا حقيقي، وليس جدلياً كما سبق في أسلوب (التسليم) في المبحث الخامس.

(٢) انظر الإتقان ٣٨٢/٢، ومناهج الجدل ص(٨٣).

لنبوتهم ما ادّعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن دعواكم هذه لا تُنتج عدم الرسالة ولا تنافي أن يمن الله علينا بها، بل البشرية شرط في الرسالة إلى عامة البشر ؛ فإن سنة الله جَرَت بأن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، يعرفون قدره ومكانته وصدقه وأمانته، وقد بين الله – تعالى – هذه الظاهرة بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء:٩٤-٩٥] (١).

وهذه الآيات فيها إخبار عن مصير الأمم الشركية المكذبة لرسلها، والتي لا يحصى عددها إلا الله – تعالى –، فقد جاءتهم رسلهم بالمعجزات، والدلائل الواضحات، والحجج القاطعات، فلم يؤمنوا بها وينقادوا إليها، بل استكبروا وعاندوا وأعرضوا وكفروا برسلهم، وشككوا في رسالتهم ودعوتهم.

فردت عليهم رسلهم بأن وجود الله – تعالى – وانفراده بالألوهية من أظهر الأشياء وأوضحها فقد شهدت بذلك الفطر السليمة، ودلت عليه آيات الكون الكثيرة فهو الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سابق، ومع ذلك فإنه – سبحانه – يدعوكم إلى ما فيه مصالحكم في دنياكم وأخراكم فإن أطعتموه غفر لكم ذنوبكم، وأطال آجالكم فلم يعاجلكم بالعقوبة.

فرد المشركون المكذبون على رسلهم رد السفهاء الجاهلين حيث ذكروا ثلاث شبهات تمنعهم من الإيمان بالله وحده والاستجابة لرسله:

---

(١) مناهج الجدل ص(٨٥)، و انظر الإتقان ٣٨٢/٢.

الأولى: التساوى في الإنسانية، فكيف تفضلوننا بالرسالة وأنتم بشر مثلنا.

والثانية: التقليد الأعمى للآباء، فكيف نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقولكم.

والثالثة: المطالبة بالإتيان بمعجزة خارقة يقترحونها هم غير تلك الآيات البينات التي جاءتهم بها رسلهم.

فردت رسلهم على تلك الشبهات الباطلة بما يلي: أما قولكم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فهذا صحيح، ولكن هذا لا يمنع أن يمنّ الله علينا ويصطيفنا بالرسالة، فإن الله يمنّ على من يشاء من عباده.

وأما احتجاجكم بما وجدتم عليه آباءكم فهي حجة باطلة، لأن توافق الآباء على أمر من الأمور لا يدل على صحته، والإنسان إذا منّ الله عليه بمعرفة الحق والهداية إليه فإنه يجب عليه قبوله حتى وإن خالف ما كان عليه آباؤه.

وأما إعراضكم عما جئنا به من المعجزات ومطالبتكم بالإتيان بمعجزة جديدة تقترحونها أنتم فهذا أمر ليس بأيدينا، وإنما هو بيد الله وحده إن شاء جاءكم به وإن شاء لم يأتكم به، وذلك بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته، وكفى بما جئناكم به دليلاً وحجة [1].

هذا و لم أجد لهذا الأسلوب مثالاً غير هذه الآية، وذلك في سياق مجادلة المشركين.

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٢١/٧، و تفسير ابن كثير ٥٤٣/٢، و تفسير السعدي ١٢٦/٤، وتفسير المراغي ١٣٢/١٣، والتفسير المنير ٢١٦/١٣.

المبحث الثامن: المباهلة

تعريف المباهلة:

قال ابن منظور[١]: "البَهْل: اللَّعن، وبَهَلَه الله بَهْلاً أي: لعنه، وباهل القوم بعضهم بعضاً وتباهلوا وابتهلوا: تلاعنوا، والمباهلة: الملاعنة، يقال: باهلت فلاناً: أي لاعنته"[٢].

وقال الراغب الأصفهاني: "والبهل والابتهال في الدعاء الاسترسال فيه، والتضرع، نحو قوله - عزوجل -: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، ومن فسر الابتهال باللعن فلأجل أن الاسترسال في هذا المكان لأجل اللعن"[٣].

والخلاصة: أن معنى المباهلة في اللغة: الدعاء باللَّعنة بتضرع واجتهاد.

وبعد التأمل في الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وما ورد في تفسيرها من الأحاديث والآثار، ومن خلال ما سبق من كلام

---

(١) هو أبوالفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري، من أئمة اللغة، من مصنفاته: لسان العرب، ومختار الأغاني، توفي في مصر عام ٧١١هـ، انظر الأعلام ١٠٨/٧، ومعجم المؤلفين ٤٦/١٢.

(٢) لسان العرب ٣٧٥/١، و انظر معجم مقاييس اللغة ٣١٠/١.

(٣) المفردات ص(١٤٩)، و انظر تفسير ابن جرير ٢٩٦/٣.

أهل اللغة يتبين أن المراد بالمباهلة الشرعية هي: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء مصطحبين أبناءهم ونساءهم فيدعون الله – تعالى – أن يحل لعنته وعقوبته بالكاذب من الفريقين.

المباهلة في القرآن الكريم:

سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب – المباهلة – في مجادلة المشركين المبطلين الذين يتكبرون عن قبول الحق، ويصرون على باطلهم وضلالهم مع قيام الحجة عليهم، وظهور الحق لهم، حيث أمر الله – تعالى – نبيه ﷺ أن يُباهل نصارى نجران[1] حينما جادلوه في أمر عيسى – عليه السلام – فلم يقبلوا الحق الذي جاء به من عند الله – تعالى –، بل أصروا على عقيدتهم الفاسدة، ومقولتهم الباطلة في عيسى – عليه السلام –.

قال – تعالى –: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٣].

---

(١) نجران: بلد جنوب المملكة العربية السعودية على حدود اليمن.

سبب نزول الآيات:

قال الواحدي[١]: "قال المفسرون: قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله ﷺ، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، فالعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه ؛ واسمه عبد المسيح، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ؛ وكان شرُف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده.

فقدموا على رسول الله ﷺ، ودخلوا مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحِبَرات[٢] ؛ جباب وأردية، في جمال رجال الحارث بن كعب[٣]، يقول من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فصلَّوا إلى المشرق.

فكلم السيدُ والعاقبُ رسولَ الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ: أسلما، فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً،

---

(١) هو أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الواحدي، من كبار المفسرين، من مصنفاته: تفاسيره ؛ البسيط والوسيط والوجيز، وأسباب النزول وغيرها، توفي في نيسابور عام ٤٦٨هـ، انظر طبقات المفسرين ٣٨٧/١، والأعلام ٢٥٥/٤.

(٢) الحِبَرات: ثياب يمانية، انظر مختار الصحاح ص(٥١).

(٣) هو الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلَة، من مذحج من كهلان، جد جاهلي، الأعلام ١٥٧/٢.

وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدث، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويُحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا، فأنزل الله - عزوجل - فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها)) [(١)].

و عن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾: "وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ، وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا لمحمد ﷺ ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى ؛ تزعم أنه عبد الله، فقال محمد ﷺ: أجل، إنه عبد الله، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده فجاء جبريل ﷺ بأمر ربنا السميع العليم، فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ ... إلى آخر

(١) أسباب النزول للواحدي ص(٨٣)، وقد ذكرها ابن كثير عن ابن إسحاق مطولة جداً، انظر تفسير ابن كثير ٣٧٦/١، و انظر سيرة ابن هشام ٥٧٣/١.

الآية[١].

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: "قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أسلمنا يا محمد قبلك، قال: "كذبتما، إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام"، قالوا: فهات أنبئنا. قال: "حب الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير"قال جابر: فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يغادياه بالغداة فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم،ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه وأقرا له، فقال رسول الله ﷺ: "والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما نارا"قال جابر: فيهم نزلت: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦١][٢].

وكان وفودهم على النبي ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة، كما ذكر ابن كثير [٣].

بيانٌ إجمالي للآيات:

في هذه الآيات الكريمة يقول الله – تعالى – منكراً على النصارى الذين

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٢٩٣/٣، وابن أبي حاتم ٦٦٧/٢، و انظر لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص(٧٦).

(٢) أخرجه الحاكم ٦٤٩/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في دلائل النبوة ٣٥٣/١، والواحدي ص ٩٠.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣٧٨/١.

يزعمون أن عيسى – عليه السلام – إله أو ابن إله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في قدرته – سبحانه – على خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [1]، حيث خلقه – جل وعلا – من غير أب ولا أم، بل ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى – عليه السلام – من غير أب بطريق الأولى والأحرى.

فإن كانت شبهتكم في ادِّعائكم بنوة عيسى – عليه السلام – أنه خلق من غير أب فإن آدم أحق بذلك منه وأولى لأنه خلق من غير أم ولا أب، ومع ذلك فقد اتفق الناس كلهم على أنه عبد من عباد الله، وأن دعوى بنوته باطلة ؛ فدعوى ذلك في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً.

"وهذا من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه"[2].

وهذا الأسلوب من الأقيسة الإضمارية التي استخدمها القرآن الكريم في مجادلة الخصم،"وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف"[3].

ثم بيّن – سبحانه وتعالى – أن ما ذكره في شأن عيسى – عليه السلام –

---

(١) قال الألوسي: "والمَثَل هنا ليس هو المثل المستعمل في التشبيه، بل بمعنى الحال والصفة العجيبة، أي صفة عيسى كصفة آدم وحاله العجيبة، تفسير الألوسي ١٨٦/٣ بتصرف يسير.

(٢) الكشاف ١٩٢/١.

(٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم ص(٨٦).

وأنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه هو القول الحق الذي لا ريب فيه، لا كما يزعم النصارى من أنه إله أو ابن إله، كما نهى – سبحانه – رسوله ﷺ أن يشك في أمر عيسى – عليه السلام – بعد ما جاءه البلاغ المبين من ربه – عزوجل –.

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ مع استحالة وقوع الشك منه له فائدتان:

إحداهما: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأرْيَحيَّة[١] فيزداد في الثبات على اليقين نوراً على نور.

والثانية: أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم، فيترع ويتزجر عما يورث الامتراء، لأنه ﷺ مع جلالته وعلو قدره خوطب بمثل هذا فكيف بغيره"[٢].

وقيل الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته [٣].

ثم أمر الله – تعالى – رسوله ﷺ أن يباهل من جادله في شأن عيسى – عليه السلام – بعد قيام الحجة عليه، وظهور الحق له بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة،"وذلك بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ثم يدعون الله – تعالى – أن يترل عقوبته ولعنته على الكاذبين"[٤].

---

(١) الأرْيَحيَّة: الارتياح للشيء ومحبته والفرح به، والنشاط إلى المعروف، والأرْيَحيُّ: الرجل الواسع الخلق، النشيط إلى المعروف، يرتاح لما طلبت ويراح قلبه سروراً، انظر لسان العرب ١٧٦٦/٣.

(٢) تفسير الألوسي ١٨٧/٣ بتصرف.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٦٦/٤.

(٤) تفسير السعدي ٣٨٨/١.

"وإنما ضم رسول الله ﷺ إلى النفس الأبناء والنساء مع أن القصد من المباهلة تبيين الصادق من الكاذب وهو مختص به وبمن يباهله، لأن ذلك أتم في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، وأكمل نكاية بالعدو وأوفر إضراراً به لو تمت المباهلة"(١).

ثم أكد – سبحانه وتعالى – صدق ما قصه وأخبر به من أمر عيسى – عليه السلام – وأنه هو الحق الذي لا جدال فيه، لا ما يدّعيه النصارى وغيرهم، مبيناً – سبحانه – أنه هو المتفرد بالربوبية المستحق للألوهية، وأنه هو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره.

وفي ختام الآيات هدد الله – تعالى – نصارى نجران الضالين إن هم أعرضوا عن الحق بعدما تبين لهم في هذه الآيات البينات التي سمعوها، فلم يرجعوا عن دينهم الباطل وقولهم الفاسد، مبيناً أنه عليم بهم، لا يخفى عليه من أعمالهم شيء، بل يحصيها عليهم ثم يجازيهم بها (٢).

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن حذيفة – رضي الله عنه – أنه قال: ((جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما: لا تفعل، فو الله لئن كان نبياً فلاعنّا لا نفلح نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب النبي ﷺ فقال: قم يا أباعبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه

(١) تفسير الألوسي ١٨٩/٣، و انظر تفسير أبي السعود ٤٦/٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٢٩٣/٣، و تفسير ابن كثير ٣٧٤/١، و تفسير السعدي ٣٨٧/١.

الأمة)) [١].

وعن محمد بن جعفر بن الزبير[٢] أن النبي ﷺ لما أمر بملاعنتهم دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضى[٣].

و عن السدي[٤] في قوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ

(١) صحيح البخاري ٩٣/٨ ح(٤٣٨٠)، وأخرجه مسلم مختصراً ١٨٨٢/٤ ح(٢٤٢٠).

(٢) هو محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الأسدي المدني، تابعي ثقة، من فقهاء المدينة وقرائها، مات سنة بضع عشرة ومائة، انظر تهذيب التهذيب ٩٣/٩، وتقريب التهذيب ص(٤٧١).

(٣)أخرجه ابن جرير ٢٩٨/٣، و انظر تفسير ابن كثير ٣٧٦/١.

(٤) هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السُدِّي، أبومحمد الكوفي، وهو السدي الكبير، صدوق يهم، ورمي بالتشيع، مات سنة ١٢٧هـ، انظر تقريب التهذيب ص(١٠٨)، وتهذيب التهذيب ٣١٤/١.

﴿ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾... الآية: ((فأخذ – يعني النبي ﷺ بيد الحسن والحسين وفاطمة، وقال لعلي اتبعنا، فخرج معهم، فلم يخرج يومئذٍ النصارى وقالوا: إنا نخاف أن يكون هذا هو النبي ﷺ، وليس دعوة النبي ﷺ كغيرها، فتخلفوا عنه يومئذٍ، فقال النبي ﷺ: لو خرجوا لاحترقوا، فصالحوه على صلح: على أن له عليهم ثمانين ألفاً، فما عجزت الدراهم ففي العروض: الحُلَّة[1] بأربعين، وعلى أنه له عليهم ثلاثاً وثلاثين درعاً، وثلاثاً وثلاثين بعيراً، وأربعة وثلاثين فرساً غازية كل سنة، وأن رسول الله ﷺ ضامن لها حتى نؤديها إليهم)) [2].

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – قال: ولما نزلت هذه الآية ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: "اللهم هؤلاء أهلي"[3].

---

(١) الحُلَّة: إزار ورداء، مختار الصحاح ص(٦٣).

(٢)أخرجه ابن جرير ٢٩٨/٣، وفي بعض الآثار أن علياً ـــ رضي الله عنه ـــ لم يكن معهم.

(٣) صحيح مسلم ١٨٧١/٤ ح(٢٤٠٤).

تعقيبات:

أولاً: هل المباهلة خاصة بالنبي ﷺ؟

المباهلة ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل هي عامة لجميع الأمة إلى قيام الساعة، كما أنها ليست خاصة مع النصارى، بل هي عامة مع كل مخالف، إذا قامت عليه الحجة وظهر له الحق، فلم يرجع عن قوله، بل أصر على ضلاله وعناده.

قال ابن القيم – رحمه الله – في فوائد قصة نصارى نجران: "ومنها أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، و لم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله – سبحانه – بذلك رسوله، و لم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابنُ عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع [(١)]، و لم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي[(٢)] سفيانَ الثوري[(٣)] في مسألة رفع اليدين و لم ينكر ذلك

---

(١) وهي مسألة العَوْل في باب الفرائض، حيث قال ــ رضي الله عنه ــ: ((من شاء باهلته أن المسائل لا تعول))، انظر سنن البيهقي ٢٥٣/٦، وسنن سعيد بن منصور ٤٤/١، والمغني لابن قدامة ٢٨/٩.

(٢) هو الإمام المحدث أبو عمرو عبدالرحمن بن محمد بن يُحْمَد الأوزاعي، عالم أهل الشام في زمانه، محدث فقيه زاهد، كان له مذهب مستقل عمل به فترة ثم اندرس، توفي عام ١٥٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٠٧/٧، والأعلام ٣٢٠/٣.

(٣) هو الإمام الحافظ الحجة الزاهد أبوع بدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء العباد، توفي عام ١٦١هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧، وتقريب التهذيب ص(٢٤٤).

عليه [١]، وهذا من تمام الحجة"[٢].

قلت: وقد دعا إليها أيضاً ابن مسعود - رضي الله عنه -، فقد أخرج النسائي عنه أنه قال: ((من شاء لاعنته ما أنزلت: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، إذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت)) [٣].

كما دعا إليها ابن القيم بعض من خالفه في مسائل صفات الله - تعالى -، فلم يجبه إلى ذلك، وخاف سوء العاقبة [٤].

وممن دعا إليها أيضاً الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ حيث قال -رحمه الله- في إحدى رسائله: "وأنا أدعو من خالفني إلى أحد أربع: إما إلى كتاب الله، وإما إلى سنة رسوله ﷺ، وإما إلى إجماع أهل العلم ؛ فإن عاند دعوته إلى المباهلة"[٥].

وقال الحافظ ابن حجر[٦] في فوائد قصة أهل نجران: "وفيها مشروعية

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٢/٧.

(٢) زاد المعاد ٦٤٣/٣.

(٣) سنن النسائي ١٩٧/٦ ح(٣٥٢٢)، وصحح إسناده الألباني، انظر صحيح سنن النسائي ٧٤٦/٢ ح(٣٩٦).

(٤) انظر نونية ابن القيم بشرح د. محمد خليل هراس ص(١٢).

(٥) انظر الدرر السنية ٥٥/١.

(٦) هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني الشافعي، محدث مؤرخ، له مصنفات كثيرة منها: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ولسان الميزان، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، توفي بالقاهرة عام ٨٥٢هـ، الأعلام ١٧٨/١، ومعجم المؤلفين ٢٠/٢.

مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي، ووقع ذلك لجماعة من العلماء"[١].

وقد سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: هل المباهلة خاصة بين الرسول ﷺ والنصارى؟

فاجابت بأنها ليست خاصة به ﷺ مع النصارى، بل حكمها عام له وأمته مع النصارى وغيرهم [٢].

ثانياً: شروط المباهلة :

يشترط للمباهلة شروط خمسة لابد من توافرها قبل أن يقدم الإنسان عليها، وقد اجتهدت في استنباط هذه الشروط من القرآن الكريم، والأحاديث، والآثار الواردة في قصة نصارى نجرا، وكلام بعض العلماء على هذه الواقعة، ثم عرضتها على فضيلة الشيخ محمد العثيمين – رحمه الله تعالى – فأقرها [٣]، وهي كما يلي:

١) إخلاص النية لله – تعالى –، فإن المباهلة دعاء وتضرع إلى الله – تعالى – كما تقدم، ولابد لقبول الدعاء من إخلاص النية فيه لله – تعالى –، كما هو الشأن في جميع العبادات، فلا يجوز أن يكون الغرض منها الرغبة في

---

(١) فتح الباري ٨/٩٥.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ٤/١٦٠.

(٣) وقد عرضتها عليه إجمالاً وذلك يوم الخميس ١٤١٤/١١/١٧هـ، بعد صلاة الظهر في مدينة عنيزة.

الغلبة، والانتصار للهوى، أو حب الظهور وانتشار الصيت، بل تكون للدفاع عن الحق وأهله، وإظهار الحق، والدعوة إلى الله – تعالى – والذب عن دينه.

٢) العلم، فإن المباهلة لابد أن يسبقها حوار وجدال، ولا جدال بلا علم، والمجادل الجاهل يفسد أكثر مما يصلح [(١)]، وقد ذم الله – تعالى – المجادل بغير علم فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨].

كما ذم الله أهل الكتاب لمحاجتهم بغير علم فقال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٦].

قال القرطبي: "في الآية دليل على المنع عن الجدال لمن لا علم له ولا تحقيق عنده"[(٢)].

٣) أن يكون طالبُ المباهلة من أهل الصلاح والتقى، إذ إنها دعاء، ومن أعظم أسباب قبول الدعاء الاستجابة لله – تعالى – بفعل الطاعات واجتناب المحرمات، كما قال – تعالى – ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ

(١) انظر الحوار مع أهل الكتاب لخالد القاسم ص(١٤٨).

(٢) تفسير القرطبي ٤/٧٠.

﴿يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال أبو بكر الجزائري في تفسيره: "مشروعية المباهلة غير أنها تكون في الصالحين الذين يستجاب لهم"(١).

٤) أن تكون بعد إقامة الحجة على المخالف، وإظهار الحق له بالأدلة الواضحة والبراهين القاطعة، فإذا أصرَّ على رأيه وبقي على ضلاله وعناده، و لم يقبل الحق، و لم تجد معه المحاورة والمناقشة، فعند ذلك يأتي دور المباهلة، وتقدم قول ابن القيم – رحمه الله –: "السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، و لم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة"(٢).

وبهذا يتبين خطأ من يلجأ إلى المباهلة بسبب ضعف أدلته وانقطاع حجته، وعدم قدرته على إقناع خصمه وتفنيد أدلته والرد على شبهته، وأن هذا المنهج خلاف ما جاء في الكتاب والسنة.

٥) أن تكون المباهلة في أمر مهم من أمور الدين، ويرجى في إقامتها حصول مصلحة للإسلام والمسلمين، أو دفع مفسدة كذلك.

قال الدّوّاني(٣): "إنما (أي المباهلة) لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة،

---

(١) أيسر التفاسير ٣٢٦/١.

(٢)انظر ص(٣٠٨).

(٣) هو العلامة محمد بن أسعد الصديقي الدَّوَّاني الشافعي، عالم العجم بأرض فارس، فاق في جميع العلوم لاسيما العقلية، وله مصنفات كثيرة، مات سنة ٩١٨هـ، انظر الأعلام ٣٢/٦، ومعجم المؤلفين ٤٧/٩.

والسعي في إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار، وعدم نفع ذلك، ومساس الضرورة إليها"[١]، فلا ينبغي أن يدعو الإنسان إليها في كل مسألة يقع فيها الخلاف، ويسوغ فيها الاجتهاد كما يفعل بعض الجهال، وتأمل قول الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، أفرأيت من ذهب إلى رأي ظهرت له قوته، وبانت له رجاحته معتمداً على أدلة ثبتت عنده صحتها، وبدت له صراحتها، هل يُعد كاذباً مبطلاً ظالماً تجب مباهلته والقضاء عليه وملاعنته؟ !.

وأما ما ورد عن ابن عباس وابن مسعود والأوزاعي من دعوتهم للمباهلة في مسائل الفروع، فقد سألت فضيلة الشيخ محمد العثيمين - حفظه الله تعالى- عن ذلك فقال: إنه اجتهاد منهم - رضي الله عنهم - [٢].

ثالثاً: عاقبة المباهلة :

قال ابن حجر: "ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة، وقد وقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها غير شهرين"[٣].

وقد دلت السنة على ذلك، فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "... ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا

(١) الفتوحات الإلهية ٣٢٦/١.

(٢) في نفس اللقاء السابق.

(٣) فتح الباري ٩٥/٨.

يجدون مالاً ولا أهلاً"[١].

وقال صديق حسن خان القنوجي[٢]: "أردت المباهلة في ذلك الباب - يعني باب صفات الله تعالى - مع بعضهم فلم يقم المخالف غير شهرين حتى مات"[٣].

ومما وقع أيضاً في هذا العصر: أن المتنبئ الكذاب غلام أحمد القادياني الذي ظهر في شبه القارة الهندية في القرن المنصرم باهل أحد العلماء الذين ناقشوه وناظروه وأظهروا كذبه وبطلان دعوته، وهو الشيخ الجليل ثناء الله الأمرتسري، فأهلك الله - عزوجل - المتنبئ الكذاب بعد سنة من مباهلته، وبقي الشيخ ثناء الله بعده قريباً من أربعين سنة، يهدم بنيان القاديانية ويجتث جذورها [٤].

(١) مسند الإمام أحمد ٢٤٨/١، وصحح إسناده أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٥١/٣.

(٢) هو أبو الطيب محمد صديق حسن خان البخاري القنوجي الهندي، له مؤلفات كثيرة بالعربية والأردية والفارسية، مات سنة ١٣٠٧هـ، انظر الأعلام ١٦٧/٦، ومعجم المؤلفين ٩٠/١٠.

(٣) عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري ٣٣٤/٥.

(٤) القاديانية دراسات وتحليل، لإحسان إلهى ظهير ص (١٥٤-١٥٩).

الفصل الثالث

وسائل القضاء على الشرك ومقاومته في ضوء القرآن الكريم

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الدعوة إلى التوحيد.

المبحث الثاني: نقض شبهات المشركين.

المبحث الثالث: إزالة مظاهر الشرك.

المبحث الرابع: الهجرة.

المبحث الخامس: الجهاد.

المبحث الأول: الدعوة إلى التوحيد

إن أُولى الوسائل التي سلكها القرآن الكريم في القضاء على الشرك الدعوة إلى توحيد الله – تعالى –، وعلى هذا المنهج سارت دعوات الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، حيث أخبر الله – تعالى – في القرآن الكريم أن أول مهمة قاموا بها حينما أرسلوا إلى أقوامهم المشركين هي دعوتهم إلى توحيد الله – تعالى – وإفراده بالعبادة [(١)].

وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين [(٢)]:

الأول: الطريق الإجمالي: حيث أخبر الله – تعالى – أنه بعث في كل أمة من الأمم رسولاً، وأن أول دعوة دعا إليها كل رسول هي الأمر بعبادة الله – تعالى – وحده، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

قال السعدي: "يخبر – تعالى – أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له".

وقال – تعالى –: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥][(٣)].

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ٢٠/١.

(٢) انظر أضواء البيان ٢٤٤/٣، والمدخل إلى التفسير الموضوعي ص(١٠٦).

(٣) تفسير السعدي ٢٠٢/٤، وانظر تفسير ابن جرير ٥٨٢/٧، وتفسير ابن كثير ٥٨٩/٢، وأضواء البيان ٢٤٤/٣.

قال أبو حيان: "أخبر [سبحانه] أنه ما أرسل من رسول إلا جاء مقـــرراً لتوحيد الله وإفراده بالإلهية والأمر بالعبادة"[(١)].

وقال السعدي: "فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رســـالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبـــود، وأن عبادة ما سواه باطلة"[(٢)].

الـــثاني: الطريق التفصيلي: حيث أخبر الله – تعالى – عن جملة من الأنبياء الذين ذكر قصصهم في القرآن الكريم أن أول أمر قاموا به حينما أرســـلوا إلى أقوامهم المشركين هو الدعوة إلى توحيد الله – تعالى –، وإليك نماذج من تلك الدعوات:

١) فهذا نوح – عليه السلام – الذي هو أول الرسل إلى الأرض، ابتدأ رسالته بدعوة قومه إلى التوحيد، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

وقال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن

(١) البحر المحيط ٣٠٦/٦.

(٢) تفسير السعدي ٢٢٣/٥، وانظر تفسير ابن جرير ١٦/٩، وتفسير ابن كثير ٢٨٥/٣.

يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ١-٣].

وقال – تعالى –: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

قال صاحب التحرير والتنوير عند هذه الآية: "وعطف جملة ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ على جملة ﴿أَرْسَلْنَا ﴾ بالفاء إشعاراً بأن ذلك القول صدر منه بفور رسالته، فهي مضمون ما أرسل به.

وخاطب نوح قومه كلهم لأن الدعوة لا تكون إلا عامة لهم، وعبّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة، ليتحققوا أنه ناصح ومريدٌ خيرهم ومشفق عليهم، وأضاف {القوم} إلى ضميره للتحبيب، والترقيق لاستجلاب اهتدائهم.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه دلالة على إمحاضه النصح لهم، وحرصه على سلامتهم، حتى جعل ما يضر بهم كأنه يضر به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم"[1].

٢) وعلى هذا المنهج سار هود – عليه السلام – حينما أرسل إلى قومه، حيث كانت الدعوة إلى التوحيد هي مهمته الأولى ومقصوده الأعظم، كما قال

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٨ بتصرف، وانظر تفسير ابن جرير ٥٢٠/٥، و تفسير السعدي ٤٤/٣.

- تعالى -: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال - تعالى -: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠].

وقال - تعالى -: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢١].

٣) وجاءت دعوة المشركين إلى التوحيد على لسان نبي الله صالح - عليه السلام -، كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل: ٤٥].

٤) وهكذا كان خليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام –، فإنه ما فتئ[١] يدعو أباه وقومه عبدة الأوثان إلى التوحيد وبأساليب مختلفة، كما قال – تعالى –: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

قال ابن كثير: "يخبر الله – تعالى – عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الزرق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مسدى لها غيره..."[٢].

٥) ومن الرسل الذين سماهم الله – تعالى – في القرآن الكريم وأخبر أنهم دعوا أممهم الشركية إلى التوحيد شعيب – عليه السلام –، كما قال – تعالى –: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال – تعالى –: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

---

(١) أي مازال وما برح، مختار الصحاح ص(٢٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير ٤١٨/٣.

٦) وعلى نهج أولئك سار نبي الله يوسف – عليه السلام –، حيث بادر إلى دعوة صاحبيه في السجن إلى لتوحيد، وبين لهما بطلان الشرك وعبادة الأوثان، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

"لقد رسم يوسف – عليه السلام – بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المثيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هزّ بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً"(١).

٧) وكذا كان عيسى – عليه السلام – فقد دعا قومه إلى التوحيد، ورغبهم فيه، وحثهم عليه، كما قال – تعالى – حكاية عنه: ﴿ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١].

وقال – تعالى –: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي

(١) في ظلال القرآن ١٩٨٩/٤، وانظر تفسير ابن كثير ٤٩٦/٢، و تفسير السعدي ٢٧/٤.

وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال – تعالى –: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال – تعالى –: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٦].

وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٦٤].

٨) وبهداهم اقتدى خاتم النبيين، نبينا محمد ﷺ، حيث مكث ثلاثة عشر عاماً بمكة يدعو قومه إلى التوحيد، ويحذرهم من الشرك، وبأساليب متنوعة، كما قال – تعالى –: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

قال ابن جرير: "يقول – تعالى ذكره – لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد: ما يوحى إليّ من ربي إلا أنه لا إله لكم يجوز أن يعبد إلا إله واحد لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي ذلك لغيره، ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، يقول: فهل أنتم مذعنون له أيها المشركون، العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك،

ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتكم؟"[١].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن كثير: "يقول - تعالى - لرسوله ﷺ إلى الثقلين ؛ الجن والإنس آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من أتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي"[٢].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١١-١٥].

قال أبو السعود: "وأُمر ﷺ أولاً ببيان كونه مأموراً بعبادة الله - تعالى -، وإخلاص الدين له، ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان، ثم بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم الفارغة، وتمهيداً لتهديدهم بقوله - تعالى -: ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم ﴾ أن

(١) تفسير ابن جرير ٩/١٠١.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥١٤.

تعبدوا ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى، وفيه من شدة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كي يحل بهم العقاب"[١].

وقال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

قال ابن كثير عند قوله - تعالى -: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ : "أي أخلصوا له العبادة على منوال[٢] ما أمركم به على أَلْسِنَة الرسل"[٣].

وقال - تعالى -: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٤٧/٧، وانظر تفسير ابن جرير ٦٢٣/١٠، و تفسير ابن كثير ٥٣/٤.

(٢) منوال: نسق وأسلوب، المعجم الوسيط ٩٦٤/٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٩٩/٤.

المبحث الثاني: نقض شبهات المشركين

للمشركين شبهات[١] كثيرة يَتَشَبَّثُون[٢] بها، ويحتجون على صحة ما هم عليه، ويُرَوِّجُون بها خرافاتهم وبدعهم.

وقد عرض القرآن الكريم بعض شبهات المشركين ثم نقضها وأبطلها وبين زيفها وفسادها، ولا شك أن كشف شبهات المشركين وبيان بطلانها من أهم وسائل القضاء على الشرك، والحد من انتشاره وشيوعه بين المسلمين.

وشبه المشركين المذكورة في القرآن الكريم متنوعة، فمنها ما يتعلق بالشرك في الألوهية، ومنها ما يتعلق بالنبوة، ومنها ما يتعلق بالقرآن، ومنها ما يتعلق بالبعث واليوم الآخر، وسأقتصر في هذا المبحث على ذكر شبهتين من شبههم المتعلقة بالشرك في الألوهية[٣].

الشبهة الأولى: قولهم: إننا لا نريد بدعائنا غير الله قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإنما نريد بذلك شفاعتهم[٤] لنا عند الله ؛لأن لهم عند الله جاهاً ومنزلة، أما نحن فمذنبون مقصرون، فلابد أن نتخذ وسطاء بيننا وبين الله.

قال – تعالى – حاكياً هذه الشبهة: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ

---

(١) الشبهة: الالتباس، انظر لسان العرب ٤/٢١٩٠، وقال الجرجاني: الشبهة في الفعل: هو ما ثبت بظن غير الدليل دليلاً، التعريفات ص(١٢٤).

(٢) يتشَبَّثون: يتعلقون، مختار الصحاح ص(١٣٨).

(٣) وقد تقدم ذكر إحدى شبههم في هذا الباب، وهي الاحتجاج بما كان عليه الأباء، انظر ص(٣٣).

(٤) قال الراغب: الشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة، المفردات ص(٤٥٨).

﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣].

قال ابن كثير عند هذه الآية: "أخبر – عز وجل – عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله – تعالى – في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه"(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "المشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها، ويقولون: هؤلاء خواص الله ؛ فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ؛ كما يُتوسل إلى الملوك بخواصهم، لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم،

(١) تفسير ابن كثير باختصار ٤/٤٩، وانظر تفسير ابن جرير ١٠/٦١١، و تفسير السعدي ٦/٤٤٥.

فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره ؛ فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبةً ورهبة.

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال – تعالى –: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال عن الملائكة: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٦-٢٨].

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاعٌ بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله، وذم المشركين عليها وكفرهم بها ..."[1].

وقال – تعالى –: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[يونس: ١٨].

---

(١) مجموع الفتاوى ١/١٥٠ باختصار، و انظر ص(١٢٦) في نفس المرجع.

وفي هذه الآية ينكر الله – تعالى – على المشركين الذين يعبدون من دونه آلهة أخرى لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، ظانين أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم منه، ويبطل – سبحانه – مقولتهم ويدحض شبهتهم، وينفي عن تلك الآلهة القدرة على النفع والضر والشفاعة، فكيف تعبد وهذه حالها؟ أم أن هؤلاء المشركين يخبرون الله – تعالى – بما لا وجود له في السموات ولا في الأرض؟! هذا من أبطل الباطل.

وفي ختام الآية يتره – سبحانه وتعالى – نفسه الكريمة عن شركهم وكذبهم[1].

وقال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧-٢٨].

ففي هاتين الآيتين يحذِّر الله – سبحانه وتعالى – مشركي قريش وغيرهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم الشركية القريبة من ديارهم، التي وعظها بأنواع العظات، وذكّرها بالحجج الواضحات لعلها ترجع عما هي عليه من الشرك والضلال فلم يؤمنوا، بل أصروا على شركهم، فأحل بهم نقمته، وعاجلهم بعقوبته، ولم تنفعهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، ويتقربون بها إلى الله، ويرجون شفاعتها عنده، بل تركتهم أحوج ما يكونون إليها، ولم تدفع عنهم عذاب الله،

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٤٢/٦، و تفسير ابن كثير ٤٢٦/٢، و تفسير السعدي ٣٣٧/٣، والتفسير المنير ١٣٣/١١.

وبذلك ثبت كذبهم وافتراؤهم حينما قالوا: إن هذه الآلهة التي نعبدها تقربنا إلى الله وتشفع لنا عنده [١].

قال ابن جرير: "يقول - جل ثناؤه -: فلولا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم أوثانُهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً، يتقربون بها فيما زعموا إلى ربهم منا إذ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إن كانت تشفع لهم عند ربهم كما يزعمون، وهذا احتجاج من الله لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه، يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئاً، أو تنفعكم عند الله كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها لتقربكم إلى الله زلفى، لأغنت عمن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعت عنها العذاب إذا نزل، أو لشفعت لهم عند ربهم فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي أنتم عليه، ولكنها ضرتهم و لم تنفعهم"[٢].

وهكذا أبطل الله - تعالى - هذه الشبهة التي يتعلق من أجلها المشركون بأوثانهم.

وقد أثبت الله - تعالى - في القرآن الكريم الشفاعة، ولكن جعلها ملكاً له وحده - سبحانه - كما قال - تعالى -: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وليس لأحد من الخلق أن يشفع عند الله لأحد في الدنيا، وأما في الآخرة فإن بعض العباد يشفعون لبعض ولكن بشرطين:

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٩٥/١١، و تفسير البغوي ١٧١/٤، وتفسير القرطبي ١٣٨/١٦، و تفسير ابن كثير ٥٦/٤، و تفسير السعدي ٥٦/٧، وأضواء البيان ٣٤٦/٧.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٩٥/١١.

الأول: إذن الله – تعالى – للشافع أن يشفع.

الثاني: رضاه – سبحانه وتعالى – عن المشفوع له.

قال – تعالى –: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال – تعالى –: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال – تعالى –: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] (١).

الشبهة الثانية: احتجاجهم بالقضاء والقدر، حيث ظنوا أن مشيئة الله – تعالى – العامة للخير والشر دليل على رضاه عنهم وعن شركهم، كما قال – تعالى – حاكياً مقولتهم هذه، مبطلاً لها، مبيناً أن الأمم الشركية السابقة قد تمسكت بها فلم تنفعهم، و لم تغن عنهم من عذاب الله شيئاً (٢):﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

وفي هذه الآية أخبر الله – تعالى – أنهم سيقولون ذلك، وقد ذكر

---

(١) انظر إغاثة اللهفان ١/٢٢٥، وكشف الشبهات ص(١٢).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/١٩٣، و تفسير السعدي ٢/٤٩٥.

- تعالى - في غير هذا الموضع أنهم قالوا ذلك بالفعل، كما قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وقد بين الشيخ عبدالرحمن السعدي فساد هذه الحجة وبطلانها، وذلك من وجوه سبعة:

١) ما ذكر الله - تعالى - من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بالأمم التي احتجت بها العقوبة.

٢) أن الحجة لابد أن تكون مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص فإنها باطلة.

٣) أن لله - تعالى - الحجة البالغة التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة باطل ؛ لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً.

٤) أن الله - تعالى - أعطى كل مخلوق قدرةً وإرادة يتمكن بها من فعل ما كلف به، فما أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لايتمكن من تركه.

فالاحتجاج – بعد هذا – بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صرف.

٥) أن الله – تعالى – لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر، وأنكر المحسوسات ؛ فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

٦) أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك ؛ بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك لم يقبلوا منه الاحتجاج بالقضاء والقدر، بل يغضبون من ذلك أشد الغضب.

٧) أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما مقصودهم بذلك دفع الحق [١].

ومما يؤسف له أن كثيراً من جهال هذه الأمة وضلالها اقتفوا آثار أسلافهم من المشركين، وتمسكوا بشبههم، بل زادوا عليها شبهات كثيرة، ضلّلوا بها بعض عوامّ المسلمين، وأشاعوها بين جهالهم، وقد تولى علماء الإسلام ردّها، وكشفوا زيفها، وأظهروا بطلانها [٢].

---

(١) تفسير السعدي ٤٩٥/٢ بتصرف يسير، وانظر تفسير ابن جرير ٣٨٦/٥، و تفسير ابن كثير ١٩٣/٢، وفتح القدير ٢٤٨/٢.

(٢) وقد أُلفت في الرد على شبه المشركين مؤلفات خاصة منها: الرد على البكري، وكشف الشبهات، ومعارج الألباب في مناهج الحق والصواب، وتحفة الطالب والجليس، ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وغيرها.

المبحث الثالث: إزالة مظاهر الشرك

من الوسائل العملية للقضاء على الشرك وتطهير الأرض منه: إزالة مظاهره، وهدم أنصابه [١]، وإتلاف تماثيله ؛ وذلك لأن نفوس المشركين متعلقة بهذه الأنصاب، فإذا أزيلت وأهينت وقضي عليها ذهبت عن نفوسهم تلك المهابة والإجلال والتعظيم الذي كانت تكنها لها.

وقد اتخذ رسلُ الله – عليهم الصلاة والسلام – هذه الطريقةَ وسيلةً للقضاء على الشرك.

فهذا نبي الله إبراهيم – عليه السلام – ينقضُّ على أصنام قومه محطماً لها، وذلك بعد أن أنكر عليهم عبادتها، وأقام الحجة على بطلانها، فلم ينتهوا عن عبادتها، بل استمروا على ذلك [٢]، كما قال – تعالى –: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

وقال – تعالى –: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

---

(١) والأنصاب جمع نَصْب أو نُصْب، وهو العلم المنصوب، ويطلق على كل ما نصب للعبادة من دون الله – تعالى –، انظر لسان العرب ٤٣٥/٧، ومختار الصحاح ص(٢٧٥)، وإغاثة اللفهان ٢١٤/١، وفتح الباري ١٧/٨.

(٢) وقد تقدم ذكر قصة تحطيمه لأصنامهم، انظر ص(٢٧٣).

"أي مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيمينه حتى جعلها جذاذاً، أي قطاعاً متكسرة ؛ من قولهم: جذَّه: إذا قطعه وكسره"[(١)].

قال ابن عطية: "وقوله - تعالى -: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ هو على جهة الاستهزاء بعبدة الأصنام، ورُوي أن عادة أولئك كانت: أنهم يتركون في بيوت الأصنام طعاماً، ويعتقدون أنها تصيب منه شيئاً ونحو هذا من المعتقدات الباطلة، ثم كان خدم البيت يأكلونه، فلما دخل إبراهيم وقف على الأكل والنطق والمخاطبة للأصنام، والقصد الاستهزاء بعابدها، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأصنام بفأس حتى جعلها جذاذاً"[(٢)].

وهكذا صنع نبي الله موسى - عليه السلام - حيث أحرق العجل الذي فُتن به بنو إسرائيل حتى عبدوه من دون الله، كما قال - تعالى -: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

ففي هذه الآية يخبر الله - تعالى - عن موقف رسوله موسى -عليه السلام- من السامري[(٣)] الذي سنَّ لبني إسرائيل عبادة العجل الذي صاغه من ذهب، ثم ألقى عليه قبضة أخذها من أثر حافر فرس جبريل - عليه السلام- حينما نزل لإغراق فرعون وقومه، فلما ألقى عليه تلك القبضة حيي وتحرك وصار له صوت كصوت البقر فتنةً لهم وامتحاناً، ففتن به بعض بني إسرائيل،

---

(١) أضواء البيان ٣٠٧/٤، وانظر تفسير ابن جرير ٥٠٢/١٠، ومختار الصحاح ص(٤١).

(٢) تفسير ابن عطية ٢٤٤/١٣، وانظر تفسير ابن كثير ١٥/٤.

(٣) هو رجل من قبيلة السامرة، وكان من عظماء بني إسرائيل، انظر تفسير ابن جرير ٤٥٢/٨.

وظنوا أنه هو إلههم فعبدوه، وذلك في غيبة موسى – عليه السلام – حينما خرج للقاء ربه، وسماع كلامه، فكانت عقوبة موسى – عليه السلام – له أن نهى الناس أن يمسوه أو يؤاكلوه أو يخالطوه أو يبايعوه، فكان يهيم في البرِّيَّة [١].

وأما العجل الذي زعم أنه إله وأقام على عبادته فمصيره الإتلاف، وذلك بتحريقه بالنار، ثم ذَرْيُه في البحر، وذلك"ليزول ما في قلوبهم من حبه كما زال شخصه.

ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى داعٍ إلى الباطل"[٢].

"وهذا موقف حازم من موسى – عليه السلام – أحد الأنبياء أولي العزم، لأن مثل هذا المعبود في زعم السامري ومن اتبعه يجب استئصال آثاره، حفاظاً على توحيد الله – عزوجل – وعبادته وحده لا شريك له"[٣].

وحينما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح، قام إلى الأصنام التي حول الكعبة فكسرها، كما في حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: ((دخل رسول الله ﷺ مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُباً، فجعل يطعنها بعود كان بيده ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩] [٤].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٨/٤٤٣-٤٥٤، و تفسير ابن كثير ٣/١٧٠-١٧٢، و تفسير السعدي ٥/١٨٠-١٨٥، والتفسير المنير ١٦/٢٦٢-٢٧٦.

(٢) تفسير السعدي ٥/٨٥.

(٣) التفسير المنير ١٦/٢٧٣.

(٤) أخرجه البخاري ٨/٤٠٠ ح(٤٧٢٠)، ومسلم ٣/١٤٠٨ ح(١٧١٨).

قال القرطبي عند قوله – تعـــالى –: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ : "في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم"[١].

وقد اقتفى أثر هؤلاء الرسل الكرام واستن بسنتهم واهتدى بهداهم الأئمةُ المصلحون والعلماء الربانيون في هذه الأمة من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، فهدموا أبنية الشرك، وكسروا أنصابه [٢].

وهذه هي وصية رسول الله ﷺ، فقد أخرج مسلم في صحيحه عـــن أبي الهياج الأسدي[٣] قال: قال لي علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]: ((ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)) [٤].

ولكن ينبغي أن لا يقدم الإنسان على ذلك إذا خاف أن يترتب على فعله مفسدة أعظم من مفسدة ما أزاله ؛ فإن الضرر لا يزال بمثله ولا بأشد منه، كما في القاعدة المشهورة [٥].

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠٣/١٠.

(٢) انظر الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ص(٤٢)، وإغاثة اللفهان ٢١٥/١، وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر ٩/١، والتبرك أنواعه وأحكامه ص(٥٠٢).

(٣) هو أبوالهيّاج حيَّان بن حصين الأسدي الكوفي، تابعي ثقة، روى عن علي وعمار، انظر تهـــذيب التهذيب ٦٧/٣، وتقريب التهذيب ص(١٨٤).

(٤) صحيح مسلم ٦٦٦/٢ ح(٩٦٩).

(٥) انظر الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ص(٢٠٢).

المبحث الرابع: الهجـــــرة

تعريف الهجرة:

الهِجْرَة في اللغة: ضدُّ الوصل، والخروج من أرض إلى أخـــرى، وهجـــر الشيء: تركه [١].

وقال الراغب الأصفهاني: "الهَجْرُ والهِجْرَان: مفارقة الإنسان غيره ؛ إمـــا بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب"[٢].

والهجرة في الاصطلاح الشرعي: تطلق على معنيين:

أحدهما: الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام [٣].

والثاني: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن [٤].

---

(١) انظر مختار الصحاح ص(٢٨٨)، والقاموس المحيط ٢/٢٥٥، وأحكام القرآن لابن العربي ١/٤١٨.

(٢) المفردات ص(٨٣٣).

(٣) قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار، وهي على نوعين:

أ) بلاد كفار حربيين.

ب) بلاد كفار مهادنين بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة، فتصير إذا كانت الأحكام للكفار دار الكفر، ولو كان بها كثير من المسلمين.

ودار الإسلام هي التي يحكمها المسلمون وتجري فيها الأحكام الإسلامية، ويكون النفـــوذ فيهـــا للمسلمين، ولوكان جمهور أهلها كفاراً، الفتاوى السعدية ١/٩٢.

(٤) انظر فتح الباري ١/١٦، وتوسع ابن العربي في معنى الهجرة فجعلها قسمين، وجعل لكل قســـم أنواعاً متعددة، انظر أحكام القرآن لابن العربي ١/٤٨٤.

هذه هي الهجرة الحسية، وهناك هجرة معنوية، وهي ما عبر عنها ابن القيم بقوله: والهجرة الثانية: ==

والهجرة في سبيل الله – تعالى – سنة باقية، ووسيلة ناجحة للقضاء على الشرك ومقاومته، وحماية المسلمين من شره، وشر أهله، وذلك لأن المسلم الموحد الذي يعيش بين المشركين وتحت ولايتهم معرض للفتن، إما بشبهاتهم، وإما ببغيهم عليه، وظلمهم له، وإكراهه على الدخول في دينهم، فهو في هذه الحال محتاج إلى ملاذ آمن، يستطيع أن يعبد فيه ربه، ويأمن على نفسه.

ثم إن اجتماع المسلمين في أرض إسلامية وولاية عادلة يقوي شوكتهم، ويعلي كلمتهم، ويسهل لهم نشر دينهم، والدفاع عنه، وجهاد أعدائه من المشركين وغيرهم.

أساليب القرآن الكريم في الحث على الهجرة:

لقد حث القرآن الكريم على الهجرة ورغب فيها بأساليب متنوعة منها:

١) الأمر بها، كما قال – تعالى –: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال ابن كثير: "هذا أمر من الله – تعالى – لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة

==

الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ...، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها، وهي هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته ..."، الرسالة التبوكية ص(١٩)، وانظر الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي جزولي ص(٤٨٣).

الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم"[١].

٢) الثناء على المهاجرين ووصفهم بالصفات الحميدة، كما قال -تعالى-: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

وقال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وقال - تعالى -: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ففي هذه الآيات الكريمة يثني الله - تعالى - على المهاجرين ويصفهم بالصفات الحميدة من الإخلاص، ونصرة الله ورسوله، والصدق، والصبر، والتوكل، والجهاد في سبله، ورجاء رحمته[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٠/٣، وانظر تفسير القرطبي ٢٣٧/١٣.

(٢) انظر الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي سامعون جزولي ص(٨٥-١٣٠).

٣) وعد المهاجرين بالجزاء الحسن، والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، كما قال – تعالى –: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

ففي هذه الآية يرغب الله – تعالى – في الهجرة في سبيله، ويبين ثمراتها الكثيرة في الدنيا والآخرة، حيث يَعِدُ من يهاجر في سبيله بأن يجد في الأرض مكاناً يمتنع فيه من أعدائه، ويغيظهم فيه [(١)]، كما يعده – سبحانه – بسعة الرزق.

ثم يخبر – تعالى – عمن خرج مهاجراً في سبيلة متحولاً من أرض الشرك إلى أرض الإسلام ثم أدركه الموت في الطريق، وأنه ينال أجر المهاجر بنيته ومقصده، كما يغفر له ما حصل منه من تقصير في أمر الهجرة وغيرها، وهذا من رحمة الله، وكان الله غفور رحيماً [(٢)].

---

(١) قال الراغب: الرَّغام: التراب الدقيق، ورغم أنف فلان رغْماً: وقع في التراب، ويعبر بذلك عن السَّخط، ثم تستعار المراغمة للمنازعة، قال – تعالى –: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ أي مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يلزمه أن يغضب منه"، المفردات ص(٣٥٩) باختصار، وقد ورد عن مجاهد أنه قال في المراغمة المذكور في الآية: متزحزحاً عما يكره، وقال ابن قتيبة: المراغم والمهاجر واحد، انظر زاد المسير ١٨٠/٢، و تفسير ابن كثير ٥٥٦/١، وقال السعدي: المراغمة: اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول أو فعل، تفسير السعدي ١٤٠/٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٢٣٩/٤، و تفسير ابن كثير ٥٥٥/١، و تفسير السعدي ١٤٠/٢.

وقال – تعالى –: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وفي هذه الآية الكريمة يعد الله – تعالى – المؤمنين الذين هاجروا في سبيله، فتركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإسلام، وفارقوا الأهل والأوطان والأحباب والخلان طلباً لمرضاة الرحمن، وفراراً بدينهم من أذية أهل الشرك والطغيان، وجاهدوا في سبيل الله حتى استشهدوا، يعد الله – تعالى – هؤلاء بتكفير السيئات ودخول الجنات التي تجري في خلالها الأنهار، ثواباً من عند الله الكريم المنان، والله عنده حسن الثواب [(١)].

وقال – تعالى –: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

وفي هذه الآيات الكريمة يذكر الله – تعالى – ثواب المتصفين بالصفات الحميدة المذكورة، وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله بالأموال

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٥٦/٣، و تفسير ابن كثير ٤٥١/١، و تفسير السعدي ٤٧٧/١.

والأنفس، ويبين أنهم أرفع منزلة عنده – سبحانه – من غيرهم، وأنهم هم الفائزون الذين نالوا مطلوبهم وهو الجنة، ونجوا من مرهوبهم وهو النار، حيث يبشرهم – سبحانه وتعالى – برحمة منه يغفر بها ذنوبهم ويرفع بها درجاتهم، ورضوان منه – تعالى – عليهم، فلا يسخط عليهم أبداً، كما يبشرهم – سبحانه – بجنات خالدة فيها أنواع النعيم، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، كل هذا دائم لا يزول ولا يبيد، وهم مع ذلك خالدون في هذا النعيم، وهذه الجنات، لا يزولون عنها ولا يتحولون، وهذا من فضل الله العظيم وإحسانه العميم [(١)].

قال الشوكاني: "والتنكير في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم، والمعنى: أنها فوق وصف الواصفين، وتصور المتصورين، والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمينها معنى التعليل، أي أعطاهم الله – سبحانه – هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيما يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم"[(٢)].

٤) الوعيد للمتخلفين عن الهجرة [(٣)]، كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٣٨/٦، و تفسير السعدي ٢١١/٣.

(٢) فتح القدير ٤٨٤/٢.

(٣) انظر الهجرة في القرآن الكريم ص(١٥٠).

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ((أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يُضرب فَيُقتَل، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ... الآية)) [(١)].

قال ابن كثير: "هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي بترك الهجرة، ﴿ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ أي لِمَ مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟" [(٢)].

وقولهم: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ – أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة – غير صحيح، لأن الله – تعالى – وبخهم وتوعدهم، فلو كانوا صادقين لما توعدهم، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولذلك استثنى – سبحانه وتعالى – المستضعفين حقيقة في الآية التي بعدها، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

(١)صحيح البخاري ٢٦٢/٨ ح(٤٥٩٦).

(٢) تفسير ابن كثير ٥٥٥/١.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٩٨-٩٩] [(١)].

قال الشوكاني: "وقد استُدل بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك، أو بدار يُعمل فيها بمعاصي الله جهاراً إذا كان قادراً على الهجرة، و لم يكن من المستضعفين، لما في هذه الآية الكريمة من العموم، وإن كان السبب خاصاً كما تقدم، وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان وزمان وزمان"[(٢)].

الهجرة في الأمم السابقة في ضوء القرآن الكريم:

ليست الهجرة خاصة بهذه الأمة، بل هي سنة قديمة عمل بها رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – وأتباعهم فراراً بدينهم، وطمعاً في نشره بين الناس، وقد ذكر الله – تعالى – في القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم في الأمم الماضية [(٣)].

فقد أخبر الله – تعالى – في القرآن الكريم عن خليله إبراهيم –عليه السلام– أنه ترك أرض قومه في العراق، وهاجر مع ابن أخيه لوط – عليه السلام – إلى الشام، كما قال – تعالى –: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقال – تعالى –: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ

(١) انظر تفسير السعدي ١٣٧/٢.

(٢) فتح القدير ٧٥٦/٢.

(٣) انظر الهجرة في القرآن الكريم ص(١٧٥).

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦] [(١)]، وقال - تعالى-: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

قال ابن جرير: "لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها مقامه أيام حياته"[(٢)].

وقال القرطبي عند قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ "هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم -عليه السلام-، وذلك حين خلصه الله من النار، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي، فإنه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فيما نويت إلى الصواب"[(٣)].

كما أمر الله - تعالى - موسى - عليه السلام - أن يهاجر ببني إسرائيل من أرض مصر، وذلك بعد أن أقام حجج الله وبراهينه على فرعون وقومه، فأبى واستكبر، وطغى وتجبر، وآذى بني إسرائيل، ومنعهم من إقامة شعائر دينهم، فأراد الله - تعالى - أن ينجي بني إسرائيل منه، وأن يمكن لهم في الأرض لكي

---

(١) قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ القائل هو إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ، روي ذلك عن ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم، ورجحه ابن جرير والشوكاني، وقيل: القائل هو لوط ـــ عليه السلام ـــ، لأنه أقرب المذكورين، انظر تفسير ابن جرير ١٣٣/١٠، وتفسير القرطبي ٢٢٥/١٣، و تفسير ابن كثير ٤٢٠/٣، وفتح القدير ٢٧٩/٤.

(٢) تفسير ابن جرير ٤٦/٩.

(٣) تفسير القرطبي ٦٥/١٥.

يتمكنوا م ن عبادة الله جهاراً، ويقيموا شعائر دينهم [١]، كما قال – تعالى –: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢]، وقال – تعالى –: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣].

كما أخبر الله – تعالى – عن الفتية أصحاب الكهف أنهم هاجروا من ديار قومهم، ولجؤا إلى غار في أحد الجبال القريبة منهم، وذلك فراراً بدينهم من قومهم المشركين الذين أرادوا فتنتهم عن دينهم، كما قال – تعالى –: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠]، وقال – تعالى –: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦].

قال القرطبي عند قوله – تعالى –: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾: "هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة ..."[٢].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٤٣/٩، و تفسير ابن كثير ٣٤٧/٣، و تفسير السعدي ١٧٦/٥، و٥١٩/٥.

(٢) تفسير القرطبي ٢٣٤/١٠، وانظر تفسير ابن كثير ٧٩/٣.

هجرة النبي ﷺ وأصحابه:

١) الهجرة إلى الحبشة [١].

لما اشتد ليل البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ بمكة، لاسيما من ليس له عشيرة تدافع عنه وتحميه أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم من الفتنة.

قال ابن إسحاق[٢]: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام"[٣].

وقال قتادة عند قوله - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١]:

---

(١) الحبشة: بلد في الشمال الشرقي من أفريقية، وتعرف الآن بأثيوبيا، انظر دائرة معارف القرن العشرين ٢٩٨/٣.

(٢) هو العلامة الحافظ الأخباري أبوبكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المطلبي مولاهم، المدني، صاحب السيرة النبوية، صدوق يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، توفي عام ١٥٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٣/٧، وتقريب التهذيب ص(٤٦٧).

(٣) سيرة ابن هشام ٣٢١/١، وانظر زاد المعاد ٢٣/٣.

"هؤلاء أصحاب محمد ﷺ، ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين"(١).

٢) الهجرة إلى المدينة:

ولما استمر أذى قريش للمسلمين في مكة وفتنتهم لهم وانتشر الإسلام في المدينة، وبايع أهل المدينة رسول الله ﷺ على أن ينصروه، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فبادروا إلى ذلك، ثم أذن الله – تعالى – لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة فهاجر إليها، و لم يبق بمكة إلا من حبسه المشركون (٢).

قال الله – تعالى – آمراً المسلمين بالهجرة إلى المدينة: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال القرطبي: "هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم الله – تعالى – بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرض مع صالحي عباده، أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة لإظهار التوحيد بها"(٣).

---

(١) تفسير ابن جرير ٥٨٥/٧.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٤٣٨/١، وزاد المعاد ٤٣/٣.

(٣) تفسير القرطبي ٢٣٧/١٣ باختصار.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: ((كان رسول الله ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠]))[(١)].

وقال الحسن البصري[(٢)] عند هذه الآية: "كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله: ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾"[(٣)].

حكم الهجرة:

قال ابن قدامة: "الناس في الهجرة على ثلاثة أضرب:

أحدها: من تجب عليه، وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة، لقول الله – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣/١، والترمذي ٢٨٤/٥ ح(٣١٣٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ٣/٣.

(٢) هو أبوسعيد الحسن بن أبي الحسن: يسار البصري، ثقة، فاضل، فقيه مشهور، وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، توفي عام ١١٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤، وتقريب التهذيب ص(١٦٠).

(٣) تفسير ابن جرير ١٣٥/٨، وانظر سيرة ابن هشام ٤٨٠/١.

وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الثاني: من لا هجرة عليه، وهو من يعجز عنها إما لمرض أو إكراه على الإقامة، أو ضعف، من النساء والولدان وشبههم، فهذا لا هجرة عليه لقول الله - تعالى -: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٨-٩٩].

والثالث: من تستحب له ولا تجب عليه، وهو من يقدر عليها لكن يتمكن من إظهار دينه وإقامته في دار الكفر، فتستحب له ليتمكن من جهادهم، وتكثير المسلمين ومعونتهم، ويتخلص من تكثير الكفار ومخالطتهم ورؤية المنكر بينهم، ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجب دينه بدون الهجرة، وقد كان العباس عم النبي ﷺ مقيماً بمكة مع إسلامه[1] ..."[2].

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين في هذا الزمان هاجروا من بلادهم الإسلامية إلى بلاد الكفار، وأحبوا الإقامة بين أظهرهم من غير مسوغ شرعي،

---

(١) قيل: إنه أسلم بعد بدر، وكتم ذلك عن قومه، وصار يكتب إلى النبي ﷺ بالأخبار، وقد هاجر قبل الفتح بقليل، انظر الإصابة ٤/٣٠.

(٢) المغني ١٣/١٥١، وانظر أضواء البيان ٤/٦٤٤، والهجرة في القرآن الكريم ص(٤٥٥).

وهذا أمر خطير، فقد ورد الوعيد الشديد لمن أقام بين ظهراني المشركين [١]، ثم إن الإنسان معرض للفتن مادام مقيماً بينهم ؛ فتن الشبهات، وفتن الشهوات، وقد حصل هذا لكثير ممن أقاموا في تلك البلاد، نسأل الله - تعالى - الثبات على دينه، ونعوذ به من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(١) كما في حديث جرير بن عبد الله ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين))، أخرجه أبوداود ٣/١٠٥ ح(٢٦٤٥)، والترمذي ٤/١٣٣، ح(١٦٠٤)، ورجح إرساله، وأخرجه النسائي مرسلاً عن قيس بن أبي حازم ٨/٣٥ ح(٤٧٧٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٥/٢٩، وانظر الولاء والبراء للقحطاني ص(٢٧١-٢٨٠).

المبحث الخامس: الجهـــاد

تعريف الجهاد:

الجهاد في اللغة: المبالغة، واستفراغ ما في الوسع والطاقة مـــن قـــول أو فعل[١].

وقال الراغب: "الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو[٢].

والجهاد شرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار[٣].

هذا هو معنى الجهاد الحسي، أو الجهاد الخاص، وأما الجهاد المعنـــوي أو الجهاد بمعناه العام فهو ما عبر عنه شيخ الإسلام ابن تيميـــة بقولـــه: "الجهـــاد حقيقته: الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان"[٤].

وقال في موضع آخر: "الجهاد: هو بذل الوسع - وهـــو القـــدرة - في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق"[٥].

والجهاد في سبيل الله - تعالى - من أعظم وسائل قمع الشرك والقضـــاء عليه، وذلك أن السُّنة في المشركين أن يُدعوا إلى الإسلام، فإن أبوا طلبت منهم

---

(١) انظر لسان العرب ٧١٠/٢، والقاموس المحيط ٣٩٦/١، ومختار الصـــحاح ص(٤٨)، والمعجـــم الوسيط ١٤٢/١.

(٢) المفردات ص(٢٠٨).

(٣) فتح الباري ٣/٦، وانظر الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته لعبدالله القادي ٤٩/١.

(٤) مجموع الفتاوى ١٩١/١٠، وانظر الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته ٢٧٤/١.

(٥) مجموع الفتاوى ١٩٢/١٠.

الجزية [١]، فإن أبوا دفع الجزية وجب على المسلمين جهادهم حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية، كما في حديث بريدة[٢] - رضي الله عنه - قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ...، فإن هم أبو فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ...)) الحديث [٣].

مراحل تشريع الجهاد:

نزل تشريع الجهاد بعد الهجرة إلى المدينة، وكان قبل ذلك محظورا على المسلمين، فقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ في أول الأمر بدعوة المشركين إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان وأمره بالعفو عنهم والصبر على أذاهم، والكف عن قتالهم، كما قال - تعالى -: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ

(١) الجزية: هي مال يؤخذ من الكفار المعاهدين على وجه الصغار كل عام بدلاً من قتلهم وإقامتهم بدارنا. انظر كشاف القناع ١١٧/٣.

(٢) هو أبو عبدالله بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي، أسلم عام الهجرة، وقيل: أسلم بعد بدر، وقد شهد غزوة خيبر والفتح وغيرهما، توفي في خراسان عام ٦٣هـ، وقيل: ٦٢هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٦٩/٢، والإصابة ١٥١/١.

(٣) صحيح مسلم ١٣٥٧/٣ ح(١٧٣١).

﴿ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الجاثية: ١٤].

قال ابن كثير: "أي ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد"[(١)].

وقال – تعالى –: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩]، وقال – تعالى –: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق: ٣٩]، وقال – تعالى –: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول – تعالى ذكره – لنبيه ﷺ: بلغ قومك ما أرسلت به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم، وذلك قبل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نسخ بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾[التوبة: ٥]"[(٢)].

ثم لما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة واستقروا فيها، وصار لهم دولة وشوكة ومنعة شرع الله الجهاد[(٣)].

وقد مر تشريع الجهاد بثلاث مراحل: الأولى: الإذن فيه، والثانية: الأمر بقتال من قاتلهم، والثالثة: الأمر به مطلقاً.

قال الشنقيطي: "ومن حكمة الله – تعالى – أنه لم يأمر بالجهاد بغتة في

---

(١) تفسير ابن كثير ١٦١/٤، وانظر تفسير ابن جرير ٢٥٦/١١، و تفسير ابن كثير ٢٣٦/٤، وفي ظلال القرآن ٧١٤/٢.

(٢) تفسير ابن جرير ٥٥/٧.

(٣) انظر زاد المعاد ٦٩/٣.

وقت واحد، لأن في ذلك مشقة عظيمة على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت، مع أنه ينفق فيه المال أيضاً، ولذلك جعل الله – تعالى – تشريعه تدريجياً حيث أذن فيه أولاً من غير إيجاب، ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه إيجاباً عاماً جازما"[(١)].

المرحلة الأولى:

الإذن في الجهاد، كما قال – تعالى –: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ففي هذه الآية يبيح الله – تعالى – للمسلمين قتال الكفار ويعدهم بالنصر عليهم.

و عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: ((لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهْلِكن، فنزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فعرفت أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: هي أول آية نزلت في القتال))[(٢)].

---

(١) أضواء البيان ٥/٧٠٠ بتصرف.

(٢)أخرجه النسائي ٦/٢ ح(٣٠٨٥)، وابن جرير ٩/١٦١، وأخرجه الترمذي بدون قوله: ((فهي أول آية نزلت في القتال))، وقال: هذا حديث حسن، انظر سنن الترمذي ٥/٣٠٤ ح(٣٧١)، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن النسائي ٢/٦٤٦ ح(٢٨٩٠).

وقد روي عن جمع من السلف أنها أول آية نزلت في الجهاد [١].

المرحلة الثانية:

الأمر بقتال من قاتلهم، كما قال – تعالى –: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة: ١٩٠].

قال ابن جرير: "قال بعض أهل التأويل: "هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك، وقالوا: أُمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمّن كف عنهم، ثم نسخت بـــ"براءة"[٢].

المرحلة الثالثة:

الأمر بقتال جميع الكفار، كما قال – تعالى –: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٣٥.

(٢) تفسير ابن جرير ٢/١٩٥، وانظر تفسير ابن أبي حاتم ١/٣٢٥، وتفسير القـــرطبي ٢/٢٣١، وزاد المعاد ٣/٧١، وقيل المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ من شأنهم القتال دون غيرهم من النساء والصبيان ونحوهم، وقيل المراد بالآية: تهييج المسلمين وتحريضهم على قتال الكفار، أي هـــؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم هم أعداؤكم الذين يقاتلونكم، انظر تفسير القرطبي ٢/٢٣١، و تفسير ابن كثير ١/٢٣٣، وأضواء البيان ١/١٠٥، والأرجح ـــ والله تعالى أعلم ـــ القول الأول، وهو مـــا ذهب إليه ابن جرير ومن وافقه، لأنه مروي عن بعض السلف، ولأنه هو ظاهر الآية، ولا منافاة بينه وبين القولين الآخرين.

ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال - تعالى -: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وفي هذه الآيات يأمر الله - تعالى - بقتال المشركين مطلقاً حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[(١)].

أساليب القرآن الكريم في الحث على الجهاد في سبيل الله:

لقد حث القرآن الكريم على الجهاد في سبيل الله وأمر به ورغب فيه بأساليب متنوعة منها:

١) الأمر الصريح، كما قال - تعالى -: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال - تعالى -: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

---

(١) أي عن قهر وغلبة وهم حقيرون ذليلون، انظر تفسير ابن كثير ٢/٣٦١.

٢) الإخبار بأن كل ما يفعله المجاهدون من مقاتلة الكفار والاستيلاء على أوطانهم وغنيمة أموالهم، وما ينفقونه في سبيل ذلك من النفقات الصغيرة والكبيرة، وما يقطعونه من الأرض في مسيرهم، وما يصيبهم في سبيل ذلك من الجوع والعطش والمشقة كل ذلك يثابون عليه، ويكتب لهم عند ربهم حسنات[1]، كما قال – تعالى –: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠- ١٢١].

قال السعدي: "ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير"[2].

٣) وعد الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله بالحياة الكريمة، والنعيم العظيم بعد استشهادهم، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤١٤/٢، و تفسير السعدي ٣١٢/٣.

(٢) تفسير السعدي ٣١٣/٣.

أَمْوَٰتًۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

قال ابن كثير: "يخبر الله عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حيَّة مرزوقة في دار القرار"(١).

وعن عن مسروق(٢) قال: سألنا عبد الله – هو ابن مسعود – عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتًۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ قال: ((أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل(٣) معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطِّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٣٥، وانظر تفسير السعدي ١/٤٥٥، هذا، ويرى الشنقيطي أن هذه الحياة البرزخية لا يدرك أهل الدنيا حقيقتها، واستدل بقوله – تعالى –: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فنفي الشعور يدل على نفي الإدراك، انظر أضواء البيان ١/٢٦٢.

(٢) هو أبوعائشة مسروق بن الأجدع بن مالك الهمْداني الكوفي، ثقة فقيه عابد، من كبار التابعين، وكبار تلاميذ عبدالله بن مسعود، توفي عام ٦٢هـ، وقيل: ٦٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤/٦٣، وتقريب التهذيب ص(٥٢٨).

(٣) القناديل: المصابيح، مختار الصحاح ص(٢٣٠).

شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا))[1].

٤) وعد المجاهدين في سبيل الله بالأجر العظيم، والجزاء الكريم في الدنيا والآخرة، كما قال - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢][2].

حكم الجهاد:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الجهاد فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وهو الراجح، ويتعين في حالات ثلاث:

الأولى: إذا هاجم العدو بلاد المسلمين ؛ فإنه يتعين على أهله قتالهم ودفعهم.

الثانية: إذا استنفر الإمام المسلمين لزمهم القيام معه.

الثالثة: إذا التقى الصفان ؛ صف المسلمين وصف الكفار حرم على من

---

(١) صحيح مسلم ١٥٠٢/٣ ح(١٨٨٧).

(٢) وقد تقدم تفسير هذه الآيات في ص(٤١٣)، وانظر في فضل الجهاد زاد المعاد ٧٢/٣.

حضر الانصراف [١].

هذا، ومما ينبغي التنبيه عليه أن هناك من المعاصرين مَن يرى أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن الأنفس والأهل والأوطان فقط، والحامل لهم على هذا الرأي اتهام الكفار للإسلام بالغلظة والقسوة، وأنه إنما انتشر بالسيف والقوة [٢].

ولا شك أن هذا رأي باطل، فإن الجهاد في الإسلام يجب ابتداءً، إذا توفَّرت شروطه، والمسلمون مأمورون بقتال الكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية كما تقدم، ودماء المشركين وأموالهم حلال للمسلمين حتى يؤمنوا بالله وحده، والحكمة من ذلك هي أن يزال الشرك من الأرض، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وليس المقصود سفكَ دماء المشركين وأخذ أموالهم [٣].

والمتأمل في التاريخ الإسلامي يجد أن عامة من دخل في الإسلام قديماً وحديثاً كان عن قناعة ورغبة، وأن من قتل في الغزوات الإسلامية الجهادية ربما لا يساوي عدد قتلى حرب واحدة من حروب الأمم الطاغية المستبَّدة الظالمة، ولا سيما في العصور المتأخرة التي انتشرت فيها أسلحة الدمار الشامل، التي تقضي على الأخضر واليابس، وتبيد الصغير والكبير.

---

(١) انظر المغني لابن قدامة ٦/١٣-٨، والجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته ٥٣/١.

(٢) انظر الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته ٦١١/١، والولاء والبراء في الإسلام للقحطاني ص(٢١٤).

(٣) انظر ص(٢٠٩)